أشياء الليل

طارق لحمادي

أشياء الليل

قصص قصيرة

دار المثقف

العنوان أشياء الليل
المؤلف طارق لحمادي
حجم الكتاب 14/ 20
عدد الصفحات 94
السداسي الثاني 2017 م 1438 هـ
ردمك : 978-9931-663-55-3
جميع الحقوق محفوظة لدار المثقف للنشر والتوزيع
العنوان: رقم ١١ شارع الاستقلال باتنة الجزائر
الطبعة الأولى

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك دون إذن خطي من الناشر.

دار المثقف
للطباعة والنشر والتوزيع

الجزائر

الإهداء

إلى الإعلاميـة الأديبـة جنّـات بومنجـل، أخـت حـرفي وصديقـة فرحـي وتـوأم غربتـي، وإلى المحامـي الصديـق المـصري العزيـز أحمـد نصّـار..

إليهما أرفع هذا الكتاب عربون محبّة وشارة أخوّة ..

مقدمة

ليست الأحلام سوى حقيقتنا الجوهرية، العجينة (المفتاح) للنفس البشرية في جدلها المتشعّب، والصورة المثلى المجلوة من بين ركام الوعي المخادع وتلويناته المريبة، فالحياة في صورة (الوعي) تسكتُ دوما عن تقديم الخامة الحقيقية منها ومن النفس دون تدخّل وتشذيب، والأمر هنا لا يعدو كونه حالة لا إرادية تخرج عن يد الوعي لما يصادفه هذا الوعي من تربية ومعرفة وقيم ومعايير ومثلٍ وأخلاقيات تتشارك كلٌ بنسبتها في قول الحياة بوعي مركّب يشذّ عن قاعدة البساطة والعفوية والمباشرة والسذاجة التي تعرفها الأحلام.

الأحلام التي تميل إلى قول (ماضٍ) من التقاطات الحياة وحاجاتنا ورغباتنا العميقة من دون تشويه وجه هذه الحاجات أو مواءمتها مع الأطر والأنساق التي حدّد بها الإنسان حياته، لتبلغ بها (حاضر) الحلم في بنائه اللامنطقي، ثم تستشرف بها وجه (المستقبل) في صورة اليقظة التي يأتي فيها دور عمليات الإسقاط والقراءات والتأويلات.

من هنا يبدو الحلم كجسر بين واقع قديم وآخر جديد، كما يبدو لمسة تعويض إشباعي لردم رغبات نفسية يعجز الواقع عن تحقيقها في ظل تسييج ذات الواقع بأوامر جزرٍ محتلفة، لكن

أحلامنا على ما فيها لا تقدّم لنا في النهاية أكثر من ملامح حوادث متداخلة برباط غير منطقي يحمل الصورة الكليّة إلى بناء سريالي يخلو ممّا يتعشّمه الفنّ.

نعم حياتنا بحاجة إلى الأحلام(حتى على وهنها) وهي ضرورة نفسية لا غنى للكائن البشري عنها، ولكن، هل الفن بحاجة إلى الأحلام ليقول حقيقة النفس كما يجب؟ وهل بإمكان الأحلام على شكلها السريالي المتدفق المفتقد لمنطقية الفكرة والصورة في أكثر الأحيان.. كما في كل حلم.. أن يسوق لنا كتابة فنيّة يعتد بها وهل يسيغ لنا سؤال الجمالية أن نخون في أغلب التصوّر طينة الحلم بإزميل الوعي لتقديمه بالتشذيب الذي يخرج به عن نقاوة روحه ويحوّله إلى مجرّد كتابة واعية، مدركة، حاضرة المنطق، مغيّبة لكل الحقيقة التي ينوء بها الحلم؟

تجاذبتني هذه الأسئلة وغيرها وأنا بصدد كتابة هذه الأحلام التي تفاوتت صنعتها، لامتزاجها بحوادث الواقع وتوليفها بالرموز الفكرية، وخلق ذلك التناغم بين لحمة الواقع في وقعه الأصيل الكامل من جهة، وبين عصب الوعي الذي يشدّ تلك اللحمة إلى أفق الإدراك والمعنى والدلالة من جهة أخرى، وحاولت قدر جهد الفنّان (إن كان لي من هذه الصفة نصيب) أن أرفع أحلامي من مستوى ذاتيتها إلى كونها العام، وأن أخرج بهذه الأشياء من ظلام الليل إلى نور القراءة.

الحلم 01

رأيت فيما يرى النائم...

أنني أجري في مدينة فارغة، كان الصباح في أوله، خيوط شمسه تتدلّى على الشرفات والأسطح والأرصفة، لا أثر لمخلوق غير خشخشة حذائي ولهاثي المتصاعد، المدينة كبيرة، عامرة بالخواء، عمرانها في تشكيل بديع يسرّ الناظر، وأشجارها متفاوتة الطول تقطر خضرة، ونوافيرها تتوسط الساحات المزيّنة بالفسيفساء، وكلّما جريت زاد إعجابي بما يحيطني من نعيم، لم يصبني العياء ولا تسرّب الملل إلى قلبي من ركض اتصل وطال، فمررتُ بدار البلدية ومحافظات الشرطة ومجلس القضاء والمساجد والمدارس والمعاهد والدّور والفلل والأسواق والحظائر والمستشفيات والصيدليات كما رأيت الحمامات والمسابح والملاعب والمكتبات والمسارح ودور السينما، أضواء تلوح في الواجهات، وإشارات تغمز بلا هدف واضح، سيارات مركونة وأخرى متوقّفة في قلب الطريق مفتوحة الأبواب.. لا شيء يدل على الحياة والأحياء غير آثارهم، كل شيء ببريق جدّته ولون عذريته الأولى، وأين اختفى النّاس بهذا الشكل المفاجئ الغريب؟ ومن أيّ الدور نزلتُ أنا؟ وكيف اندفعت في جري متصل لا بداية ولا نهاية له؟

منذ الصباح، يتصل ركضي بملاحظاتي، وعلى عينيّ أطنان من الأسئلة المتراكمة، المدينة كبيرة لا حدود لنهاياتها، وكلما جريتُ

في طريق سلّمتني إلى درب جديد، آملتُ في خلال ذلك أن يتناهى إلى سمعي نباح كلب من بيت أو مواء قط شارد، كما وطنّت النفس على بعض الصبر لعلّني أنتهي إلى أزيز موتور سيّارة عابرة أو صوت امرأة من شرفة، فكّرت في إمكانية خدش ورم هذا الصمت بأيّ طارئ يعيد للحياة دمها الحيّ، بدا الصراخ هو الحالة المواتية لو أردت أن أنعم ببعض الصدى على الأقل، لكنني خجلتُ من نفسي، كيف لي أن أفتح فمي مصدرًا صوتًا هادرًا يفسد جلال ما أنا فيه؟ ثم إنّ هذا اللهاث سوف يحرمني من أية محاولة نداء، ووجدتني أركّز كل تفكيري عن الجدوى من بناء مدينة بمثل هذه الروعة إن كنتُ وفي خلال كل هذا الجري المتصل لم تقع عيني على مقبرة واحدة.

الحلم 02

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ الدنيا ليلٌ والمقهى الوحيد في الحيّ مُضَاء عن آخره، وحركة أشباح بشرية حول نور بابه المسفوح على الطريق، بدا المنظر كما لو أنه لفراشات متطايرة حول قنديل كاز، ورغبت في المضي إلى المصدر لاكتشاف ما خامرني من شكّ، لكن الخوف أقعدني عن التقدّم خطوة أخرى، رحتُ بعدها أرقب المكان من بعيد لعلّي أظفر بمعرفة تقود قلبي إلى اليقين، إذ ليس من عادة المقهى أن يُفْتَحَ في مثل هذا الوقت.

باتت حركة الأشباح بنفس النسق الذي رأيته أول مرة، لم تتغيّر أبعادهم ولا استجدّ خلطٌ في مواقع تنقّلهم، الظلال عينها في رسم واحد متقن بغاية البراعة والدقة، والضوء بنفس الإشعاع المريب، ولا طريق إلى بيتي غير هذه الطريق التي اعترضني فيها الرّجال بتلك الصورة العجيبة من التشكيل، لا مناص من أخذ الحيطة والحذر من رجال لا تعرف عنهم أيّ شيء، يتطايرون في حركاتهم المثلى، فيسدّون المنافذ التي تتوهّم نجاتك منها.

بقيتُ كما أنا، ألهثُ بعينين مفجوعتين بالسؤال، وأرسم خططي الفاشلة للنجاة ممّا أوقعتُ نفسي فيه.. أكان عليّ أن أجيء في مثل هذه الساعة، فلا أعثر لنفسي على سبب مقنع في وضع الرّجال في طريقي؟ وتجاذبني شذا بخور ملأ الفضاء

ووقـع أحذيـة عسـكرية دكّـت صمـت الليـل، وصـوت يتسـلّل مـن غفـوتي كأنــه الخــلاص:

- مرْ فالطريق آمنة.

الحلم 03

رأيت فيما يرى النائم..
أنني أقف على أرض فارغة خضراء تحيطها التلال الفسيحة. خيّل إليّ لأول وهلة أنها الجنّة كما جاء وصفها في القرآن الكريم، واعتمدت على ذاكرتي في استحضار آية واحدة تثبت صحة زعمي، فلم أجد في روحي حرفًا واحدًا من كلام الله تعالى، اكتسحني بعدها خوف عظيم، وأنا أرى الرّجل الوحيد في تلك المساحة مهرولا نحوي، مسندًا عصا بيزبول على كتفه اليمنى، وبيده اليسرى بدا كأنه يسحب رأس امرأة من غير جذع.

الحلم 04

رأيت فيما يرى النائم...

أنني في عام 1993 يوم تخرّجي من المعهد، ألفّ أدراجًا حديدية مكتبية بستارة النافذة، ولاحظ بعض أصدقائي همّتي العالية فيما أقوم به، فأومأوا لي أن أكمل فعلتي، إذ بدا لهم أنّ مثل تلك الطريقة في نهب الأدراج لن يتسنّى للحرّاس كشفها، عرفت حينها أنّ روح الإجرام مسّتني كشيطان رجيم، لففتُ الأدراج على طولها بالستارة، وقد بدا أنّ لها مفاصل فولاذية تيسّر أمر التوائها فتجعلها كالعجينة الطيّعة بين يديّ، ثم اتجهت نحو الباب الخارجي، فلم يعترض طريقي أحد..

سرنا من المعهد - وهذا ما تخيّلته - لكن للحقّ، فقد كنا نسير من بيتي نحو (الفيلاج) **village**، أكّد صحّة علمي رخامات وشواهد القبور التي مررنا بها، هي نفسها المقبرة التي عبرتها سنوات طفولتي وأنا في طريقي إلى المدرسة، تذكّرت ذلك من كمّ الخوف وخيالات الأشباح التي رمتني بها كلّما كنت وحدي..

بكيتُ الآن من خوف مقيم بداخلي، وحين سُئلت عن ذلك عزوتُ الأمر إلى حادثة طفولة لم يرها غيري، فرقّوا لحالي، وقالوا فيما قالوا: إنّي عبقرية تستحقّ الاهتمام، فصاحب خيال خصب مثلي يصنع المعجزات، أقسمت لهم حينها بأغلظ الإيمان

بأنني أقول الحقيقة، فتضاحكوا، وطلبوا لي ماءً.. من أين جاء الماء؟ لستُ أدري.. كل الذي أعرفه أني شربتُ حتى ارتويتُ، وواصلنا المسير وأنا أحمل أدراج المكتب من غير عناء، وأسلك طريقًا جديدة وحدي بعد أن تفرّق شملهم بين دروب مختلفة.

كان هذا منذ عام 1993، أقصد منذ أن استيقظت على حاجتي إلى شربة ماء، مكتشفًا بالصدفة البحتة بأنّ الأدراج ما تزال بين يديّ.

الحلم 05

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ حفنة من العساكر تحلّقوا حول بقرة عاجزة، يحملون بأيديهم دلاءً ونصالاً حادّة عكست وهج الشمس على التلال، اندفعت البقرة بيأس محاولة الهرب باختراق صفّهم، لكن وثاقها المشدود إلى وتد قديم حال دون فلاحها، تقدّم أحدهم منها بثقة ومهارة، فكمّم فمها وعصب عينيها بخرقة سوداء، وانبرى آخر بعد أن أنزل خوذته على الأرض إلى إضرام نار عظيمة سرعان ما علا دخانها في الفضاء، هبّت ريحٌ، وسُمِعَ خوارٌ مريض يملأ الأفق، رأيتُ بعدها النّاس يتوافدون من كل حدب وصوب..

كانت البقرة ما تزال تصارع بالرّفس والنّطح، وهم يعاجلونها بضربات سريعة.. باستطاعتهم ذبحها بيسر لو شاءوا، فأنا لا أشكّ في قدرتهم بحكم قوتهم وسطوتهم وهذه النّصال الحادّة المرعبة التي تتأرجح بين أيديهم، بمقدورهم إنهاء الأمر في طرفة عين، وطرح البقرة أرضًا تحت أحذيتهم.

لسبب بتّ أجهله لم يفعلوا، كانوا يحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم، خوارها يملأ الفصول، وهي ترفس الأرض في يأس وعجز، أما النّاس الذين اجتمعوا للفرجة، فقد تقدّمهم شيخ معمّم رافعًا صوته الجهوري:

- تراصّـوا واعتدلـوا، فـإني أراكـم مـن وراء ظهـري يرحمكـم الله..

الحلم 06

رأيت فيما يرى النائم...

أننا قدمنا إلى الشقة النابتة في طرف الحيّ، وحيدة كانت، يحيطها الصمت وتشرفُ من جهة الشرق على خلاء هادئ لا حركة فيه، كانت المرأة تتعثّر في سكرها، أما هو فقد سبقنا إلى الباب الخارجي يعالج قفله بمفتاح بدا أنه لا يستجيب. طال وقوفنا بالرّدهة في انتظار الفرج، فاستندت إلى الدرابزين وراحت تدندن بلحن ملأ المكان..

فُتِحَ الباب أخيرًا تحت رحمة لعناته، فدفعه بغضب وهو يقول:

- القفل بحاجة إلى بعض التشحيم.

في الداخل لاح الضوء كاشفًا الرّواق الطويل الذي يصل بين الغرف منتهيًا بباب الصالون، رائحة قِدَم تفوح من الأثاث البسيط، تقدَّمَنَا بخطوات قلقة، وبدت لي تحت نور اللمبة منهكة إلى أبعد حد، أحسست جسدها الفارع وهو يميل عليّ بما بقي له من جهد، أما هو، فقد أشار إلى الكنبة وخرج..

جلسنا بارتياب، تبادلنا النظرات الفارغة، في أعيننا الصمت الطويل والخوف المشتعل من الآتي، وما الآتي؟ لا نعرف لماذا أصرّ على استضافتنا هنا، ثم انسحب..

في بادئ الأمر حسبناه قصد المطبخ لإحضار المزيد من الشراب، لكن الانتظار الذي بدأ لبضع دقائق زاد عن حدّه، اضطجعتْ هي من تعب السهر ودوار السكر، وبقيت أحرس المكان بعين لا تسهو، لم تعرف كم استغرقها النّوم حين عادت تسأل بعينين محمرّتين بجمر التعب ولسان مشتّت:

- ألم يعد بعد؟
- يبدو أنه غادر..
- إلى أين؟
- إلى حيث يكون.
- وأين يكون؟
- لا أعرف، فنحن في آخر الليل وشقّته في طرف الحيّ..

واندلع فينا شعور برهبة كوننا رهينتيه، أيكون قد أحكم إغلاق الباب خلفه؟ سألتها إن كانت سمعت صوت قرقعة المفتاح يدور في القفل، فأومأت بالنفي، وخمَّنْتُ بصوت داخلي عاجز.. كيف انسلّ من بيننا بخفّة ريشة؟ فردتْ هي كأنها سمعتني:

- كيف لم نر ظلّه يعبر الشارع مثلا؟

لم نقو على النهوض، شدّنا اليأس إلى الكنبة، وقبل أن نخلد إلى نوم عميق قالت:

- لقد كسر المفتاح القفل عن آخره، وأثر هذه الدماء على أيدينا هي كل ما بقي من الباب.

الحلم 07

رأيت فيما يرى النائم...

ساقين عاريتين تقفان على رمل ناعم، ونذيرًا من داخل روحي يهتف بي:

- لا ترفع بصرك إلى أعلى..

صدعتُ للنداء بأن أبقيتُ عينيّ في مستوى سمانتيّ الساقين، لا أزيد أعلاهما إنشًا واحدًا، بدا من بياضهما اللافح أنهما لأنثى، أكّدتُ ذلك لنفسي بخلوّهما من الشعر وبتلك النعومة التي لا تحظى بها غير سيقان النساء، إلاّ أنني وفي قرارة نفسي استغربتُ لهذا الاستنتاج الذي خلصتُ إليه.. من أيّ الأسباب والعلل جاء؟ وما الذي أوحى لي بمثل هذه المعرفة؟.. الرّجل أيضا تكون ساقاه بنفس البياض وذات الطراوة، كما يمكن للمرأة أن تكون مشعّرة السيقان، قوية العضل. كل هذا لن يغيّر من الأمر شيئا ما دمتُ لا أستطيع النظر إلى أعلى بعد أن اشتعل الهتاف في نفس اللحظة التي لمحتُ فيها الساقين.

بقي كل شيء على حاله، الساقان بنفس وقفتهما، زاوية انفراجهما لا تتبدّل، موتٌ كاملٌ للحركة، الثبات الذي يقتل أيّ ملاحظة جديدة... قلتُ في نفسي: لو تحرّكتْ لأمكن معرفة ما يتخفّى،

حافّة فستان، حافّة دانتيل مطرّز، لو ابتعدتْ أكثر، فقد تنكشف الفخذان، يُرَى مايوه السباحة الفاتن، فالرّمل دليل البحر.. غير أنّ المشكلة التي تفنّد احتمالي هو الغياب المطلق للهدير، لا صوت لنورس مثلا، لا هتافات أو أهازيج من تلك التي يشهدها الشاطئ بمصطافيه، كما أنه لا قدرة لي على ملاحقة المكان بعينيّ، فأنا محكوم بهذا الأمر الداخلي، النداء الخفيّ الذي تفجّر كلغم في وعيي، كأنه الميثاق من دون التفكير في الطاعة أو المعصية، بل دون أن أفوه بكلمة وجدتُ العهد قد حدث، أطعتُ دون إدراك ولا سؤال ولا بحث ولا استفسار، لم أسأل حتى لِمَ أنا هنا؟ ولماذا كان انبطاحي بمثل هذه الطريقة، مستلقٍ بلا حول ولا قوة، وأمر صارم قذفته حقيقة لا تفقهها روحي.. لا ترفع بصرك إلى أعلى...

الساقان باقيتان، جامدتان، أما حلاوتهما فقد بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، تشكّلتا بهيئة ساقيّ رَجُلٍ أول الأمر، نبت شعرهما، تكاثف، ثم استدقّا، عمّهما السواد، صارا كقائمتيّ خيلٍ، الحافران يغرقان في الرّمل، بعض الذباب المتطاير ألهمني صواب الرؤية، خيلٌ على الشاطئ، لكن الخوف من رفسي يكاد يمنعني من البرّ بوعدي، لا مجال لرفع البصر ولا للتراجع حتى.. والقائمتان تتبادلان خبط الرّمل الناعم فتنغرسان فيه، تفعلان ذلك من جرّاء عضّات الذباب الذي تكالب فملأ الليل بطنينه.

لم تكن حيرتي من غياب الذيل الذي وجب أن يكون خلف القائمتين أشدّ منها في كون هاتين الساقين لامرأة أو لرجل.

الحلم 08

رأيت فيما يرى النائم...

أنني أتجوّل في جنان عامرة بما لذ وطاب، تراءت لي أنثى على هيئة شجرة، رفّ غراب بهدوء الواثق من جناحيه، ثم حطّ على غصن صدرها، ولم تمض هنيهة حتى راح يضرب حلمتها بمنقاره المدبّب، نزّ دم قانٍ مختلطا بلبن ثلجي، فانحدرت سيوله خطوطا متشعّبة على الجسد الفاتن، لم تحتمل الشجرة الأذى الذي لحق بها، فرفست بساقها الأرض لعلّ الغراب يوجس خيفة فيطير، ولكنه ظلّ واقفًا على غصنها غير آبه بما يجري..

بدأتُ أفقد ثقتي في طيرانه، كان الذكاء يلمع من عينيه الصغيرتين، يعرفُ أنّ الشجرة لا علاقة لها بالمرأة، صحيح أنها تطرح الثمار مثلما تفعل المرأة، لكنها ليست هي، تحرّك بقفزة ناحية السرّة، أنشب مخالبه الحادّة في لحائها حتى يقي نفسه فاجعة السقوط.. اهتزّت شهوة أغصانها أكثر، فتساقط المزيد من ثمرها، وبحركة تشبه هبّة يد الرّيح نزل الغراب على الأرض غير هيّاب، مستجمعًا كل قوته في مخالبه.

كان الدّود هو آخر ما رأيتُ من ذلك الحلم، إذ خرج من بطن الثمرة وراح ينهش كل ما حوله..

الحلم 09

رأيت فيما يرى النائم...

المرأة وهي تخطو نحوي بكامل فتنتها، البلوزة القصيرة الزرقاء وقد كشفت عن ساقين عاجيتين، والوجه الصبوح الذائب في تقاسيم الشباب، لم أفكّر كثيرا في أمر جهلي بمعرفتها قدر تفكيري في حاجتها عندي، أنا لا أملك - لوجه الحقيقة - ما أهبه، معدمٌ من طينة هؤلاء الفقراء الذين لا حول ولا قوة لهم، والمرأة لا يبدو من دلال مشيتها وفتنة جمالها وتقاسيم قدّها أنها بحاجة إليّ أو إلى غيري، حالة سحرية يتعثّر بها الكائن كما يتعثّر بنسيم ربيع صباحي. جاءت من مكان قصيّ لم تدركه معرفتي، هكذا فجأة لقيتنا وجها لوجه، وببسمة طائشة زرعت حماسة السؤال في لساني:

- هل من خدمة؟

قالت من دون أن تطلب إذنا بالجلوس:

- مللتُ..

- ممّ؟

- من كل شيء..

وجاء أخي عوض النّادل، وضع الصينية على حافّة الطاولة، وقال:

- أعرف عشقك للقهوة، أما هي فلا أعرف طلبها..

- أيّ شيء..
- أيّ شيء؟

خرجت عن صمتها:

- أنا صائمة.

لسنا في شهر الصيام، ولا يدل منظرها على ورع، البلوزة الزرقاء مفتوحة عند الصدر، والعقد الذهبيّ ينتهي بفصّ مشعّ بين نهديها، كيف لي أن أصدّق؟..

في غياب أخي « النّادل « وجدتني أسألها بغرابة:

- كيف يعمل شقيقي نادلا؟

ضحكت حتى ملأت المكان بجاذبية أنوثتها، مسحت بيدها الطرية على زندها، ثم حرصت على همس لا يبلغ غيري:

- أنا أصوم لأنّ لي به وجاء..
- يستحيل..

قالت تشرح ما غاب عن فهمي:

- أما أولادي فقد كبروا، لا يغرّنك أنهم في الجامعة، ما زال الشباب يشعلني، غير أنّ تجربة الزواج في سن مبكرة تحطّم كل رغبة.

قلتُ بلهفة العطشان:

- بإمكانكِ الزّواج مرة أخرى.
- لم يعد للتجربة من معنى.

وقبل أن يتصل كلامها ببعضه، أومأت لي بالقيام بعد أن سحبت الكرسيّ، وهمّت بالخروج، لحقتها دون تفكير، سرتُ في إثرها كظلّ ميّت حتى بلغت بي تيديس فأشارت إلى آثار

الحجـارة بإصبعهـا قائلـة:

- شكلا هي مذهلة صح؟

- صح..

- لكنها خاوية لا حياة فيها، خربة من الداخل.. هذه أنا..

قلتُ بجرح:

- هـي لم تجـد العـين التـي تؤمـن بهـا كحالـة حيـاة لا أكثـر، ليـس كل مـا يهجـره النّـاس يمـوت، هنـاك أشـياء لا تُعْـرَفُ قيمتهـا بعيـون الخلـق.. قلّـة مـن تعـرف معنـى هـذا الجـمال وتحيـا فيـه وتحييـه معهـا، وأنـا هـذا الزائـر الوحيـد لمدينـة اسـمها...

وتعثّـرت في معرفـة اسـمها، فراحـت تضحـك، تشـجّعتُ أكثـر فقلـتُ:

- وأحيا فيها.. أقصد أحيا فيكِ...

- لن تحتمل الحياة في هذه الخرابة.

فقلتُ بتصميم:

- لـن أهجـرك إلاّ إذا اخـترتِ ذلـك، هـي كل مـا أحببـتُ.. الجـمال منـا وليـس في ذات الـشيء، وقـد آمـن قلبـي بـكِ، فكـوني ديـن هـذا القلـب إلى ايـروس..

غشـاها الصمـت واستسـلمت لأطيـاف الذكريـات، ووجدنـا أنفسـنا في غرفـة تخـدش الظلمـة زواياهـا، فيـما وسـطها مضـاء بكسـل مصبـاح، سـكبت لي كأس نبيـذ، فلـم يدهشـني أنهـا لم تـشرب معـي لأنّـه ولحقيقـة لا أعـرفُ مراميهـا بـتّ مؤمنـا بأنّنـا في شـهر الصيـام، سـألتني عـن عمـل شـقيقي، فقلـتُ لا أذكـر أنـه عمـل نـادلا قبـل اليـوم، فقالـت بعـد أن اضطجعـت عـلى سريرهـا مـن تعـب الرحلـة:

- سأبكر الليلة في نومي لأجل عملي صباحًا.

استيقظتُ في نفس اللحظة التي نامت فيها، لتواجهني صورتها، البلوزة القصيرة الزرقاء وقد كشفت عن ساقين عاجيتين وصدر مكتنز، الوجه الصبوح الذائب في تقاسيم الشباب، والكعب العالي وقد غفا على قدميها إلى ما لا نهاية..

الحلم 10

رأيتُ فيما يرى النائم..

أستاذ التاريخ والجغرافيا يشير بمسطرة مديدة نحو السبورة التي علّق على سطحها صورة خريطة، انتابني شعور بالإحباط والخوف من جهل سوف يجعلني مثار سخرية بين أقراني، اعتليتُ المصطبة بذل لم يخفَ عن الأعين الرّقيبة، حينها هبط صوته كاللغم في نفسي:

- أين تقع؟

عضتني الحيرة، وتجاذبتني ذكريات أوجاع قديمة، فاستحلتُ ريشة استلّتها الرّياح من جناح طائر، ثم راحت تلهو بها فوق الأبنية والحقول والساحات العامة، تقلّبتُ بين هبوب الاحتمالات الممكنة والمستحيلة، ولسبب بتّ أجهله لم يلح الأستاذ على الإجابة، فقد ركن إلى بعض السكون الذي منحني مساحة كافية لأرى وأسمع، كنتُ حينها قد بلغتُ حديقة غنّاء ملحقة ببيت حجري عتيق، فرحتُ أدوّم للنزول حتى انتهيتُ إلى فراش من العشب المبلّل غير بعيد عن قدميّ امرأة تنشر غسيلها:

- من أنتَ؟

ملأني العجب من السؤال الفارغ، كيف تُسْأَلُ ريشة عن ماهيّتها؟ ثم إنّ السؤال عن الموقع فوق الخريطة لم نأت إلى

حسمه بعد، وقبل أن يرتد إليّ وعيي، همستْ:

- لا يهمّ الموقع، لا تشغل بالك به..
- لكنني مطالب بالإجابة عن السؤال.
- هو نفسه يجهل الإجابة.
- مستحيل..
- هذا هو الممكن الوحيد.

كيف لأستاذ التاريخ والجغرافيا أن يجهل الموقع؟ أكان مجرّد اختبار ليعرف منّي ما لا يعرفه؟ ولكنها أضافتْ:

- الحدود تتغيّر بسرعة رهيبة، لكن الخرائط تبقى على رسمها القديم، لأجل هذا يخفق النّاس في تحديد المواقع بدقّة. لي عذري الذي يبرّر جهلي، أما آفة السخرية فلا منجى لنا منها جميعا، وشدّني إلى واقع الحلم من جديد بتكرار سؤاله:

- أين الموقع؟

- الأصدقاء والأعداء، الجنود والقتلة، لا أحد من هؤلاء يترك للخرائط معنى..

كانت صفعته مدويّة على خدّي، قويّة إلى حدّ استيقظتُ فيه من نومي، ورحتُ أفتّش بعينين قلقتين عن الموقع الذي كنتُ فيه..

الحلم 11

رأيت فيما يرى النائم...

أنني معلّق إلى ساق طائر عظيم الخلقة، سمعتُ خفقان جناحيه ورأيتُ منهما تهدّل ريشه عند الحوافّ. كان صرير الرّيح يشعّث شعري ويربك استقامة وجهي، ها هي الأرض في الأسفل تستحيل أبنيتها الشاهقة إلى علب كارتون صغيرة، وتمتد تلالها المخضرّة كالزرابي، أما الطرق فقد استدّقت إلى حدّ بدت فيه كالثعابين، وقبل أن يرتدّ بصري إلى ما أنا فيه، فوجئتُ بالجبل ينقسم إلى نصفين من رواء المخلب الأسود الضخم..

هل كان ينوي أن يحطّ؟

عاد يفرد جناحيه من جديد، ثم يضرب بهما كمجدافين بنفس القوة والجذب، فيندفع كالسهم، تراجعت ساقاه إلى الوراء، فاتخذ جسدي وضعية من يتهيأ ليلقي بنفسه في عرض بحر، حلق بي دون أن أعرف من أين جاء ولا إلى أين يمضي، كنتُ مشدودًا إلى ساقه اليسرى ببروتال **bretelle** تحسّسسته فإذا هو ممسوس بالبلى... سوف أقع في أيّة لحظة، الهوة بعيدة والرّيح عاتية والخوف يتناسل في عينيّ كلما أفرط في تحليقه، إيقاع طيرانه يتغيّر بين مدّ ساقيه وإنزالهما، تساءلتُ بما بقي من أمل.. متى ينتهي إلى صخرة أو عشّ؟.. لم أعوّل على الأسلاك الكهربائية، فمثل وزنه لن يحتمله غير جبل.

انتظرتُ أن يحطّ حتى يأمن قلبي شرّ هذا الخوف، لكن تحليقه لا يتوقف.. قطعنا المدن والجبال والتلال والهضاب والبحار والأنهار، تساءلتُ في سرّي.. كيف لم يصبه التعب ولا مسّه العطش، ولا كانت به حاجة إلى طعام؟ كان تحليقه هو كل وجوده، وليأسي من نزوله الأرض فكّرتُ في فكّ أربطتي وتحرير نفسي من ساقه، وما إن هممتُ بفعل ذلك حتى سمعت صوت أمي يزجرني:

- لا تفتح البروتال

قلتُ بحرج مكشوف:

- الحرقة في .....

فقالت بصوت عاد إليه الدفء:

- اسحب سحّاب بنطالك فقط.

ومدت يدها، فنزل السحّاب بطريقة سحرية، وجدت عضوي الصغير يتحرّر، عمّت فوضى البلل فراشي، ونشوة راحة تتسلّل إلى عينيّ الصغيرتين كما يتسلل الفرح إلى عينيّ طائر أفلت من قبضة فخّ.

Bretelle أو الحمّالة.. حزام يشدّ البنطال إلى أعلى الكتفين.

الحلم 12

رأيت فيما يرى النائم...

أنني أقف على خريطة، والخريطة على طاولة، والطاولة في قاعة، والقاعة داخل بناء كبير يبدو كالسجن، لا علاقة لي بالمكان في حدود تساؤل فارغ.. لِمَ أنا هنا؟.. لستُ ممّن يُضْرِبُون عن العمل، ولا علاقة لي بأيّ حزب سياسي، حتى عضويتي في النقابة فقدتها بسبب عدم تجديد بطاقتي منذ تاريخ بعيد.

كل هذه الأسئلة لا تهمّ، لكن.. في اللحظة التي بدأتُ أفكّر فيها في كيفية خلاصي من هذه الأسوار، تناهى إلى سمعي صوت ارتطام غريب، قرقعة جسم خفيف على الأرض بدأت بقوة، ثم ذاب صوتها في صمت مريب، لستُ الوحيد في البناء إذًا، والخريطة التي أقف عليها لم تأت عبثًا، ومن ألقى بي هنا لابد وأنه تركها كمفتاح أقود به نفسي إلى مصدر صوت هذا الكائن الذي يشاركني السجن..

المشكلة أنّ الخريطة بلا معنى، مجرّد خطوط والتواءات، صحيح أنّها تحصر بينها بعض البقع المتباينة الألوان، لكن هذه البقع لا تحمل أسماء ولا تشير إلى أمكنة معيّنة، أين أنا فوق هذه البقع اللونية على وجه التحديد؟ والصوت لا يعاود ولادته كرّة أخرى لأقتفي أثره. ألقيتُ الخريطة جانبًا، بدا أنها لا تقدّم الحلّ اللازم لخلاصي، لا شيء يدل فيها على صنعة هذا

البنـاء، مجـرّد خريطـة عاديـة كآلاف الخرائـط التـي كنّـا نتدارسـها في صـفّ الجغرافيـا.. الأمـر مقـزّز حـين تصطـدم بمثـل هـذا العبـث، تناهبنـي قلـق عاصـف وخـوف عميـق لا قـرار لـه، إلاّ أنّ كل هـذه الأحاسـيس المربكـة لم تحجـب عنّـي عـلى الأقـل روح الفكـرة التـي أعيشـها.. في نفـسي قلـتُ: مثـلي لـن تنطـلي عليـه الحيلـة، شـاهدت الكثـير مـن أفـلام الرّعـب التـي تشـبه وضعـي.. يوضـع البطـل في متاهـة، تُسَـلَّطُ عليـه الأضـواء، يُرْبَـطُ بسلسـلة إلى جـدار، تُمْنَـحُ لـه قدّاحـة أو كمّاشـة أو أيّ أداة سـخيفة يبتدعهـا السيناريسـت، ثـم تبـدأ معاناتـه الدّاميـة تحـت عدسـة كامـيرا ترقـب كل حركـة وكل نأمـة منـه، ليـس بعيـدًا أن أكـون تحـت رحمـة أعينهـم، فـأرٌ أبيـض يصـارع موتـه داخـل إطـار زجاجـي شـفّاف، مـن هـذه الفكـرة اللمّاحـة رحـتُ أبحلـقُ في السـقف وأمسـح الجـدران بنظـرات مريبـة، لا أثـر لكامـيرا ولا للأسـلاك، الجـدران بيضـاء عاريـة تمامـا مثـل بيضـة مسـلوقة.. لكـن، لِمَ الخريطـة عـلى وجـه التحديـد؟

وجدتنـي أعـود إلى النقطـة عينهـا في دائـرة تفكـير مغلقـة لا أملـك في يـدي غيرهـا، وهـي بخطـوط خرسـاء تحـصر بـين تعرّجاتهـا هـذه البقـع اللونيـة الصـمّاء، لأول مـرة أنظـر إلى اللـون بمثـل هـذه النظـرة الميّتـة، نظـرة تتـوازى فيهـا الألـوان عـلى تباينهـا واختلافهـا فتقـف عـلى نفـس قـدم المسـاواة، يبـدو الأسـود منهـا كالأبيـض والأسـاسي كالثانـوي والحـار كالبـارد، خلطـة واحـدة متداخلـة لا تميّزهـا العـين ولا تـشرف بالرؤيـة عـلى هـدف محـدّد..

رغـم كل هـذا العصـف، فالحـلّ هنـا مـا دام صـوت القرقعـة قـد سـكت إلى حـين.. التقطـتُ الخريطـة مـن عـلى الطاولـة، طويتهـا عـلى

شكل عصا، اقتربتُ من الجدار بحذر ورحتُ أنقر عليه نقرًا خفيفًا متصلا.. تردّد الصدى بصوت فادح، ثم أعقبه صوت خرير ماء مختلطًا بدندنة أنثوية لذيذة، بدا الأمر في غاية السحر، فالجدار كما يبدو يفصلني عن حمّام نسائي، استجمعتُ شتات ما مر بي بالسرعة التي يتطلّبها الذهن للحصول على جواب لكل حيرة، بدت القرقعة أنسب لسقوط صابونة على أرض لزجة، استمرت المرأة في غنائها الحلو كالسكّر، كلماتها تجلّت بوضوح منسابة بلحن ملكوتي حزين بعد أن تراجع صوت خرير الماء:

مال حبيبي ماله *** كان معايا كان

مال حبيبي ماله *** يا ناسي غضبان

عداني عداني *** دون سباب جفاني

خلاني خلاني *** في همومي وأحزاني

منحتُ قلبي للصوت النّاعس فوق غيم الرّيح، فيما انشغلتْ أصابعي بنشر الخريطة من جديد، ليس في نيّتي الآن الخلاص من هذه الأسوار، لم يعد يعنيني الرّحيل بقدر رغبة البقاء التي أشعلها صوت هذا الغناء في أعصابي، الخريطة لا تشير إلى باب، والقاعة لا باب لها، بيضة مسلوقة ساكنة، وقبل أن أصحو من سكرات النشوة كفّت عن الغناء:

- أعرفُ أنك هنا وإلاّ ما كنتُ غنّيتُ..

فاجأني صوتها كصعقة كهرباء، فقلتُ برهبة:

- فأين نحن؟
- الحرّية لا تقع دومًا خارج الأسوار.
- كنتُ أعتقد أنني وحدي، لذلك فكّرتُ في خلاصي.

- الوحـدة سـجن، حتـى لـو ذهبـت إلى الخـارج فإنـك تمـشي إلى سـجنك.
- الخريطة معي لكنني لم أفلح في فهم طريقي.
- تركتُ لكَ باب الحمّام مواربًا حتى تعرف طريقك.

وانسـلّت مـن البانيـو، وقفـت خلـف السـتارة الشـفّافة تقطـر بكامل الرّغبـة، وكنـتُ أبحلـق في الخريطـة باحثًـا عن طريـق الخلاص.

الحلم 13

رأيت فيما يرى النائم...

الرّجل وهو ينهرنا برفق الحليم الذي لا يملك من التأنيب غير هذه الفكرة:

- ألا تشعرون أحيانًا بالضحك حين يتذكّر أحدكم نكتة وهو يؤدي صلاته؟

قلتُ:

- بلى.

قلتُ ذلك رغم كوني لا أصلّي، وفي لحظة غامرة انتابني إحساس بذلك البعد الشاهق عن الدين، والتفتُّ فلم أجد لهما أثرًا، سألني كأنه يحمّلني وزر اختفائهما:

- أين هما؟

تلعثمتُ، قلّبتُ البصر في المكان من جديد:

- كانا هنا..

- هنا أين؟

كيف أدله على المكان؟ لا جدار، ولا ستار، ولا أكمة، الامتداد بعذريته والجهات الأربع مفتوحة على مدّ البصر، للحقّ فإنّ حيرتي تتجاوز حيرته، وسؤالي عالق أكثر من سؤاله.. هنا أين؟ قلتُ بصوتي الخفيض كأنّني رجع صداه، لم يُخْفَ عليه قلقي وتوتري، لاحظتُ ذلك في عينيه الجليلتين وقد حمّلهما كل دفء

مشاعره، ثم إنّ مجرّد الاعتراف والإقرار بخطأ ما فضيلة، فما بالك لو كان اعترافي بخطئي في العبادة.. بلى يحدثُ أن ينتابني الضحك وخيالي يطارد حادثة أو يستحضر نكتة، وما أكثر النّكت الخليعة التي أحفظها عن ظهر قلب، والتي أتبجّحُ بها أمام كلّ طالبٍ للضحك، وما أكثر استظهاري لها كتحدٍ لأولئك الذين يعتبرون أنفسهم أهل نكتة وظُرف، عرفتُ ذلك فيما بعد حين خلوتُ إلى نفسي، أدركتُ أنّ غايتي إفحام غيري، لا يهمّني ضحكهم قدر اعترافهم لي بالتفرّد في قول كل جديد، مدهش، غير مسبوق، ينفجرون بالضحك، يقهقهون، يدخلون في هستريا كاملة، تختلط دموعهم باللهاث، يتهاوى بعضهم على الأرض، يشير لي بعضهم الآخر بيده.. أنْ توقّف.. ارحم.. كفّ..

- أول مرة نسمعوها..

النكتة العذراء، بلساني تُفَضُّ بكارتها، وعلى آذانهم يسيل دمها لأول مرة، يشتعل الضحك كحقول اللوز في نيسان، أبيض، مزهر، شفّاف.. وانتابني الضحك في حضرته، افترّت شفتاي أول الأمر، لجمتها، وقفتُ أمامه كمن يداري شيئا في جوف حلقه، عاد رأسي إلى النكتة يحفر فيها، ففضحتْ وجهي انقباضات حول العينين، أحسستُ بوجنتيّ تنسحبان إلى أعلى، لمعتْ أسناني، ثم...

- أما زلتَ تضحك؟

غمرني شعورٌ بالخجل، قبل قليل أبديتُ له طاعة عمياء، وافقته على قولٍ لا يعنيني، لكنني أحسّ الآن بحقيقة الضحك في غير وقته، الضحك الذي يفسد الصلاة، ويجرح التقوى،

ويشـوّه الـورع، ويعطـب حرمـة المـوت والأمـوات، بقـي يبحلـقُ في وجهـي.. سريعًـا عـدتُ إلى رشـدي أبـرّر لـه:

- لا.. فقط كنتُ أتساءل أين غابا؟

اكتسـحه صمـتٌ طويـل وضعنـي في حالـة ترقّـب، ثـم تقـدّم بخطـى وئيـدة، وقـف أمـام النّعـش مسـتقبلا القبلـة، وحـين رفـع يديـه بتكبـيرة الإحـرام، انفجـرت الضحـكات مـن كل مـكان..

الحلم 14

رأيت فيما يرى النائم...

أنني أجري في شِعْبٍ، لا أعرف ما الذي كان يطاردني على وجه التحديد، لكن نباح كلاب تتناقله الرّيح لا يمكن أن يُخْفَى على أذن السّامع. المشكلة أنّي حين ألتفتُ خلفي يخذلني البصر في رؤية أيّ شيء، كنتُ حافيا، حاولتُ قدر جهدي في ركضي المتّصل ذاك تفادي الأشواك، ليتني انصعتُ لأمر أمّي:

- اِلْبِسْ السبادريspadri

راوغتها، حملته لأثبت لها صحّة طاعتي، حين انشغلتْ.. أخفيته في العُلّيّة، وخرجتُ..

- سبادري نايلون؟.. ومع أقراني الذين ينتعلون أحذية رياضية باهظة الثمن.. يستحيل..

كنّا أحد عشر أخًا، وكلّما سمعتُ سورة يوسف رأيتني في الجبّ، أما هي فتقول:

- باباكم على قدّ الحال يا وليدي.. يقرّي ويوكّل ويشرّب..

هذا ما يوجعني، الحقيقة.. من أين لوالدي بسدّ حاجة كل هذه الأفواه؟ الحلّ هو أن أوهمها بطاعة أمرها في انتعال سبادري « الفقراء » وأما أقراني فإنّ لامبالاتهم على الحفا أرحم وأشدّ

وطـأة منهـا عـلى هـذا السّـبادري الرخيـص..

حـين أعـود.. أختلـس الإبـرة، أسـلّها مـن بكـرة الخيـط بحـذر، أجلـس ثانيًـا رجـلي في حجـري، ثـم أبـدأ في تحريـك رأسـها عـلى أصـل الشّـوكة التـي اخترقتنـي، ينفجـر الألم بحرقـة كلّـما تلامسـا.. هنـا.. أبـدأ الحفـر، أحفـر جلـد القـدم، سـماكته بسـماكة جلـد فيـل، كل هـذا مـن أثـر الحفـا..

- الملعونة لو لم تكن حادّة، ما كانت لتخترقني بسهولة..

أحفـر بـلا خـوف، أثنـي رجـلي أكثـر رغـم الألم الـذي يفتـك بمنبـت الفخـذ، يـتراءى سـاق الشـوكة، ألتفّ حولـه بـرأس الإبـرة، وفي سرّي أتـضرّع إلى الله أن لا تعـرف أمّـي بـما يجـري..

لأجـل كل هـذا كنـتُ أتفـادى الأشـواك في ركـضي، وقـد زادت حـدّة النّبـاح في أثـري حتـى مـلأت سـمعي، بـدأتُ أفقـدُ القـدرة عـلى التركيـز للعثـور عـلى أيّ مخبـأ، شـجرة عاليـة أتسـلّقها، حفـرة ألقـي بنفـسي فيهـا، بيـتٌ مهجـور أحكـم إغـلاق بابـه المتهالـك عـليّ. المشـكلة أيضـا والتـي لا يجـب أن تغيـب عـن ذهـن الكائـن أنّ الـكلاب تشـمّ، أنوفهـا اليقظـة، آذانهـا المديـدة، اندفاعهـا المتحفـزّ، سـعارها البـيّن وهـي تتشـمّم الأرض، ثـم تشـير إلى بعضهـا البعـض بنبـاح متقطّـع يخفـتُ أحيانًـا ليسـتحيل إلى شـبه مـواء، لغـة تخاطبهـا التـي لا يفقههـا خوفنـا.. لا حـلّ إلاّ المفتـاح.. قلـتُ لنفـسي، ودفعـتُ يـدًا مرتعشـة إلى جيبـي، لكنهـا عـادت خائبـة المسـعى.. الأصـل أنـه لا بيـتَ، فَلِـمَ المفتـاح؟!

النّبـاح يعلـو أكثـر، يتداخـل، يسـيل، ينهمـر، حناجـر الـكلاب تتنـاوب، لا تـدع أدنـى فسـحة للصمـت، الرّيـح تكـدّ في تقريـب

وجودهـم أكثـر، الخـوف مـن أمّـي يحملنـي عـلى تفـادي الأشـواك، الـكلاب كلاب صيـد.. السـلوقي الأبيـض المبقّـع بالأسـود، أذنـاه متدلّيتـان، عينـاه مظلمتـان ككهـف، نظراتـه يقظـة، أنفـه شـفّاطة روائـح، وهـم خلفـه يحملـون البنـادق.. كـم كلبًـا في أثـري؟.. لا أعـرف، كنـتُ فقـط أكـدّ كـي لا تقـع قدمـي عـلى شـوكة، وكان النّبـاح يشـتعل كالنّـار، يمـلأ الشِّـعْبَ، يسـدّ كل منفـذ..

حـوصرتُ أخـيرًا، تجـلّى كل شيء بكامـل تكوينـه، الـكلاب تتشـمّم المفتـاح النّابـت في الأرض، بنادقهـم المصوّبـة نحـو رأسي، والألم يكوي قدمـي مـن أثـر تمّـاس رأس الإبـرة بسـاق الشّـوكة، وهـي تؤنبنـي:

- يا شيطان.. أخفيتَ السّبادري كالعادة في العُليّة؟

السـبادري **spadri** نعـلٌ مـن النايلـون بخـس زهيـد ينتعلـه الفقـراء، شـاعت صناعتـه في الجزائـر سـنوات طفولتـي بـين عامـي 77 و 78

الحلم 15

رأيت فيما يرى النائم...

أننا اختلفنا، فأطلقتْ هذا النّعيق المرّ، كانت تحرّك يديها في الهواء بعصبية ظاهرة، وترفع صوتها بهذا الصراخ العالي الذي ملأ الدنيا. لم يفصح الخصام عن حقيقة أسبابه، لكنني أدركتُ بشعور ما أنّ عتبي عليها هو الذي ولّد كل هذا الجنون:

- شعورك تغيّر..
- أنت تهيننني كثيرًا.
- الأمر لا يعنيك بأيّ حال، وما أكتبه لا يتجاوز الأحلام.
- الأحلام هي حقائقنا، أمّا الواقع فمجرّد قناع يحوّلنا إلى مسوخ.

وقفتُ مشدوهًا أنظر إليها بما بقي فيّ من أمل لإصلاح ذات البين، هل يمكن أن أخفق في الواقع كما في الحلم؟.. راحت تنظر بشرود من النافذة، وحين عجزتُ عن استدراجها إلى ملاحظة وقفتي، عدتُ إلى تقليب صفحات كتاب قديم، فراعني ما وجدتُ فيه من صور عن هذا الطّائر الشّؤم، وفكّرتُ.. هذا صنيعها، فلا أحد يدخل مكتبي سواها:

- كثيرات يدخلنّ مكتبك..

بدا كأنها تسمع ما يدور في خلَدِي، فقلتُ بضيق:

- بومٌ يا منى؟

- أين؟
- كل صور الكتاب تحوّلت إلى صور بومات..

تحوّلتْ عن النافذة، اقتربتْ بما يتيح لها ملاحظة الكتاب معي..

- كيف حدث هذا؟!
- لا أعرف.. يبدو أنّ أحدهم يريد الانتقام منّي بهذا السخف..

بدا الكتاب كاللغم المرعب، وغشيتني وساوس لا حصر لها، تذكّرتُ الموت والأموات، ورأيتُ ظلال المقابر السّاكنة، وعبرتْ رأسي ملامح الجماجم المعجونة بالترّاب، حتى قالت:

- لا تنسَ أنني زوجة.

لم أعرف ذلك إلاّ لتوّي، صعقني الخبر، فضغطتُ على الكتاب بقوة، طارت بومة من قلبه وحطّت على طرف المكتب، ثم راحتُ تدير رأسها بما يسمح لها بملاحظة كل تفاصيلي، بدا منقارها المعقوف وامتلأ وجهها بعينين حزينتين ، وما لبثتْ أن أطلقت صوتها بهذا النعيق المرّ..

الحلم 16

رأيت فيما يرى النائم...

دمية ملقاة وسط حشدٍ من النّاس، كان الوقت ليلا، فانعكست أضواء عربات الشّرطة والإسعاف بوميض خاطف على المكان والوجوه، لم أتعرّف إلى أحدٍ في هذا التدافع الفوضوي الذي شدّ فضولهم. بدا أنّ رجال الشرطة قد وقفوا كسدٍ منيعٍ أمام معرفة ما يجري، مدّ أحدهم شريطًا أصفر يفصل به بيننا وبين الضحيّة، والتفتُّ أبحث بعينين قلقتين عن وجه صحفيٍّ يخترق الحشد يتأبّط كاميرا ومسجّلا بيده، خمّنت أنّ ذلك ما يجب أن يحدثُ بعد أن شهدتُ الأمر في مئات الأفلام، لكن الرّجاء خاب.. لا أثر للصحفيّ، فقط، تدافعنا وهمهماتنا التي تخرج بين الفينة والأخرى إلى مستوى السمع:

- مسكينة استدرجها إلى هذا المكان المعتم، ثم قتلها..

ردّ آخر:

- الجثّة ما تزال ساخنة، يبدو أنّ القاتل لم يبتعد كثيرًا عن مسرح جريمته.

أشار الشّرطي بإصبعه نحو شفتيه طالبًا الصمت، فانهمكنا في الوشوشات من جديد، اشرأبّت أعناقنا وتبادلنا النظرات الفارغة والوجوه الحجرية الباردة، كيف تموت بهذه السذاجة الفجّة؟ لا

شيء يدلّ على القاتل ولا سبيل إلى معرفة الضحيّة.

كانت الدّمية بلا دماء، واحترتُ كيف يمكن لكائن قضى نحبه أن يكون دون أثر قطرة دم واحدة تدلّ على موته؟.. همس لي أحدهم:

- هذا زمن أمسى الكائن فيه بلا دم..

كدتُ أصدّق قوله لولا أنني انتبهتُ إلى جرحٍ في يدي بدأ يلتئم، خدشته بدافع التجربة لأثبتُ صحّة ادّعائه، فإذا الدم ينزّ منّي.. يستحيلُ أن يكون الكائن دون دماء، لكني أرجّحُ أنّ الموت سمًا هو الطريقة التي قضتْ بها الضحيّة.

انهمك رجال البحث الجنائي في تصوير الجثّة ورفع كل شاردة وواردة من مسرح الجريمة، لاحقوا الآثار وقاسوا المسافات، فتّشوا جيوب فستان الدّمية:

- لا هويّة لها..

قال أحد الرّجال، فردّ آخر:

- قد تكون انتحرتْ لسبب ما..

صرختُ من وسط الحشد:

- نعم هذا ما خمّنته أيضا، وأرجّح أنّ ذلك تم بالسم..

ووجدتُ سبّابة الشرطي تشير نحوي:

- أنتَ.. نعم أنتَ قاتلها..

تدافعت الظلمة بحلكة العمى، وافترّ ثغر المجهول عن ضحكة مجلجلة، قدحت العيون بشرر النّار تحت وميض الأضواء، تشنّجتْ الأعصاب.. لا وقت للشرح أو التبرير كما لا يمكن لأيّ كائن أن يستمع إليك، حسبك الآن أن تدفع الأذى عن نفسك،

فــترد ضرباتهــم وتتفــادى بصاقهــم.. تماســك، فالســقوط يعنــي الــرّكلات التــي لا رحمــة فيهــا..

كــما كنــتُ أول مــرّة في الرّحــم، تقوّســتُ، حضنــتُ رأسي بكلتــي يــديّ، دفنــتُ ســمعي تحــت تــراب الخــوف، لكــن الصــوت اخترقنــي بقســوة:

- كيف يفكّر بزواجها رغم فارق هذا العمر؟!

قال آخر:

- ما تزال طفلة..

دهسني ثالثهم بقدمه وهو يردّد:

- الشيب والعيب..

عــلى وميــض نــور عرباتهــم، لمحــتُ الطفلــة وهــي تلتقــط دميتهــا مــن الأرض، وحــولي راح الحشــد يكــبر ويتّســع..

الحلم 17

رأيت فيما يرى النائم..

أنني أقف على محطّة فارغة في انتظار امرأة لا أعرف عنها أيّ شيء، قيل لي إنّ حلّ مسألة الحياة تقع على عاتقها، وأنّ الانتظار هو كل ما أمكن لي من بين كل الخيارات، جعلتُ أتفحّص الأفق بعين أنهكها الملل، وأقتل الوقت برصاص الحنين إلى أيام طفولتي، ثم ما لبثتُ أن صحوتُ على صخب الحياة، أبواق سيارات، هدير مارّة، صيحات باعة، وصفير قطار، عجّت الدنيا ببهاء الحركة، وهاهي تطلّ أخيرًا من انعطافة الشارع، فيحتضر الفراغ ويشعّ في قلبي نور الطمأنينة:

- كنتَ في انتظاري؟
- نعم
- لأجل ماذا؟

افترسني الخجل، فتلعثمتُ.. كيف لي أن أفسّر لها مسألة الحياة، وهي الحياة نفسها؟ ولاحظتْ بعين بصيرتها إطراق رأسي، فقالت:

- لا عليك..
- لا أعرف أين أمضي..

وقبل أن تدلّني على حلّ يُرضي قلبي، انشغلتْ عنّي بامرأة

أخـرى وفـدت إلى المحطّـة، تبادلتـا حديثًـا شـيّقًا بـلا نهايـة لم أسـمع منـه غـير حركـة شـفاههما اللذيـذة، وفكّـرتُ في العـودة مـن حيـث أتيـتُ قانعًـا بلمسـة السـعادة السـحرية، لكـن خـوفي مـن لغـز الحيـاة الـذي سـوف يواجهنـي دون حـلّ شـلّ عزيمتـي وحملنـي عـلى الصـبر حتـى النهايـة..

أنتظـر الآن مثلـما أُوحَـى إليّ، وفي لحظـة سـهو منّـي اختفـت المـرأة بطريقـة غريبـة، بقيـتُ لحـيرتي وصـدى قلبـي يـردّد:

- لا حلّ للغز الحياة إلاّ باثنتين المرأة أو الموت..

الحلم 18

رأيت فيما يرى النائم...

النافـذة تزحـف بصريـر واهـن نحـو الجـدار، تدفعهـا يـدٌ بيضـاء خرجـتْ مـن قلـب العتمـة، ثـم تلاهـا وجـهٌ باسـتدارة بـدر. غمرتني نجـوى الحنـين وتزاحمـتْ نفـسي في ظلـمات السـؤال:

- لا موعـد بيننـا ولا أمـل في وصـلٍ، فكيـف تناسـلتْ الدنيـا بـكل هـذا الشـذا؟

حفيـف الثـوب موسـيقى سـحرية، جسـدها يُلهـم المـكان، والسرير الـذي نـام عـلى الطّـوى عـاد فاسـتيقظ عـلى نـداء فواكههـا، لم تقـتربْ لأطـير بأجنحـة الأمـل ولا ابتعـدتْ لأغـرق في وحـل اليـأس، بـدا مكرهـا كمكـر فراشـة تحـوم حـول قنديـل، فاشـتعلت روحـي بـما يكفـي لبعـث الجحيـم، وليأسـها منّـي قالـت:

- لأجل حلمك الجميل سوف أكافئك.
- لكنني لم أحلم منذ أمد طويل.
- فماذا تسمّي ما أنتَ فيه؟

الحـقّ أنـه ليـس حلـمًا، هـذا عـين الواقـع بـكل ثقلـه، أرى النافـذة عـلى حركتهـا الوئيـدة تمـلأ صمـت الليـل بصريـر واهـن، كـما رأيـتُ اليـد البيضـاء وهـي تمتـد، أصابعهـا بتـلات أزهـار تخـرج مـن رحـم الظلمـة فيشـعّ النّـور، كل شيء يبـدو حقيقيًـا، أرى وأشـمّ وأسـمع

وألمس وأتذوّق حلاوة شهد اللحظة، وكي أقطع الشكّ باليقين مددتُ يدي محاولاً سجن ثوبها عليّ أثبتُ لي ولها أنّ الأمر واقع وحقيقة لا سبيل إلى نكرانهما، لم تمهلني لأعرف، انسحبتْ بحركة مفاجئة، طارت كما تطير راقصة باليه وهي تهمس:

- الخيال الخصب لا يستحقّ صاحبه إلاّ رشوة.
- وما تلك؟

أضافت غير حافلة بسؤالي:

- أو على الأرجح ما ستعتقده رشوة، ولكنها في الحقيقة مكسب لي.

قلتُ بتصميم:

- سيحفّزني ذلك أكثر، لنرَ..
- أريد أن أغفو في حضنك، لن أدعك تنام وحيدًا بعد الليلة.

بدتْ بعيدة، وبقدر المفاجأة كانت ردّة الفعل، الهدوء الذي يسبق العاصفة، الصمت العاجز الذي يمنح الحياة لأقل نأمة، فظيعٌ صرير النّافذة وهي تتلكّأ في سيرها نحو الجدار..

- استلق ومد ذراعك لأغفو قليلاً..

استلقيتُ في نداء الغيبوبة، عضّتني الحاجة في ظلام نفسي، فأدركتْ بخبرة الأنثى ما أريد:

- الجو بارد وعاصف..

كانت تلك إشارتها لأبدأ، إلاّ أنّ مقبض النّافذة كان قد انتهى إلى ارتطامه بالجدار في صفعة مدوّية أفسدتْ كل شيء.

الحلم 19

رأيت فيما يرى النائم...

لسانه يتدلّى، فيملأ سمعي باللهاث، الوجه كبير كوجه ثور البيسون، من العجيب أنه بلا قرنين، اللهاث دلالة على جري متّصل، بإمكانه الآن وقد توقّفتْ السيّدة لبعض الرّاحة على مقعد في الحديقة أن يستردّ أنفاسه، يستطيع أن يقعى، مع الوقت يتراجع تعبه رويدًا رويدًا إلى أن يتوقّف بطنه الضامر عن هذا الاهتزاز بين الشهيق والزفير..

بدا منهكًا، لن يخفى ذلك عن العين الرّحيمة، التفتَ إلى السيّدة، كانت منشغلة عنه بقراءة مجلّة، طرف السلسلة منتهٍ إلى يدها، تلفّه لفّة خفيفة بين أصابعها، مجرّد إيحاء بأنّ رقبته في سجنها، عيناه تعكسان طاعة عمياء، فتيّ بما يكفي للاندفاع، لكنه لا يهرب يظل لصيقًا بطرف ثوبها فيما هي منشغلة عنه، نادرًا ما تنتبه إلى وجوده، لا يحدثُ ذلك إلاّ بنباحه، ونباحه يأخذها إلى النظر نحو البعيد، تفتّش بعينين مطمئنتين عن مصدر استيائه، ثم تعود إلى نفسها، لم يحدث أن سألته يومًا: ما الذي يربكَ؟ حتى في الليل حين تخفتُ الأضواء وتهدأ حركة النّاس ويعمّ الصمت، فهي لا تعنى بنباحه ولا تهتمّ لأمر قتاله مع السلسلة الحديدية، من عادة أصحاب الكلاب وأنا أعرفُ

بعضهم أن يجيبوا كلابهم إذا نبحوا، أنا نفسي كنتُ أجيب كلبي مايك إذا نبح..

تغرس رأسها في المجلّة، عيناها تمضغان الأحرف والصور، أحدهم كان معي لم أتبيّن على وجه اليقين من هو، قال ساخرًا – وهذا ما عرّفني إلى حضوره –:

- هذا الصنف من النساء لا يقرأ.
- ولكنها تقلّب صفحات المجلّة منذ أن جلستْ.
- تتفرّج على آخر ابتكارات الموضة.

تساءلتُ في سرّي: ابن الملعونة كيف عرفَ؟ واصل هو:

- ستحتار من معرفتي هذه رغم جهلي بالسيّدة.

قلتُ:

- نعم هذا صحيح.
- الأمر في غاية البساطة، ما يحصل لذلك الكلب حصل معي كثيرًا.. أنتَ نفسك مررتَ بي أو مررتُ بك، لا أذكر جيّدا، لكن أحدنا كان واقفًا أو جالسًا، ومرّ أحدنا بالآخر..
- هل سحبتك السيّدة بسلسلة؟!
- يووووه لستُ الوحيد.
- أتعني أنك.....
- قُلْهَا.. لا تخف..
- كلب.

وكي يثبت صحّة كلامي رفع نباحه عاليًا، انتبهت السيّدة إلى

أصابعهـا الفارغـة مـن السلسـلة، تأفّفـتْ، طـوتْ المجلّـة، ثـم حملـتْ حقيبـة يدهـا وغـادرتْ..

في إثرها جرى.. بلسان يتدلّى ولهاث سدّ عين الليل..

الحلم 20

رأيت فيما يرى النائم...

أنني أرتقي سلالم نفق معتم درجة درجة حتى أنتهي إلى رصيف محطّة، في يدي حقيبة وفي قلبي مضغة أحلام، لم تدهشني الجموع الغفيرة التي اصطفّت على جانبيّ الرّصيف في انتظار القطار، قال صوت:

- سيسع الجميع فلا تقلقوا..

لا يبدو على وجوههم القلق، وأوحتْ حقائبهم بسفر طويل، تشاغلتُ عنهم بتقليب صفحات كتاب قديم، لغته غريبة وخطّه يشبه خطوط كتبة التعاويذ والتمائم إلى أن علا صفير ينذر ببداية الرّحلة، صعدتُ مع غيري إلى جوف القطار، والتذكرة في يدي لاستظهارها وقت الحاجة، أشار رجلٌ نحو كرسيّ ملاصق للنّافذة:

- مكانك هنا.

أحسستُ بخفّة الحمل، الكتاب أثقل من أن أفتحه من جديد، من حقيبتي أخرجتُ قطاري الصغير، رحتُ أسوقه في الهواء، وبفمي أولّدُ له أزيز موتوره وصفيره العالي.

انشغل الرّكاب كلٌ بحاجته والقطار يقطع التلال والجبال والأودية والفصول، محطّاته كثيرة والنزول والصعود منه وإليه بالكاد نلحظه، تتغيّر وجوه الرّكاب من دون أن يثير ذلك فينا

أدنى تساؤل، ولكن السيّدة التي تقاسمني كرسي الرّحلة تسأل:

- ألا ينزل أحدهم من قطارك هذا؟

صحوتُ من سكرة اللعب على صوتها، تحمّستُ لفهم ما يدور داخل القطار، ألقيتُ نظرة متفحّصة من ثقوب نوافذه على الداخل:

- القطار فارغ.

قالت بصوت الواثق:

- ولكننا نشغله.

عدتُ أبحثُ عن نفسي داخله، أوقفتُ عجلاته الحديدية على سطح الحقيبة، من ثقوب نوافذه لا يشي الداخل بحركة حياة، ولاحظتْ حيرتي فهمستْ بحنان:

- هذه محطّة نزولك.
- لكنني لستُ داخل القطار.
- أنت فقط لا ترى نفسك فيه، جرّب خروجك منه.

انتابني إحساسٌ بتفاهة كل شيء، ها أنذا أنتهي خفيفًا كما بدأت، متاعي إلى جوار السيّدة، وأنا أخرجُ من قطاري إلى أرضية القطار الذي توقّف فجأة على رصيف محطّة أراها لأول مرّة.

الحلم 21

رأيت فيما يرى النائم...

الوجه النّاعم وهو يتحوّل على وهن الضّوء إلى شرّ مطلق، اعتلتني في لحظة مباغتة، يدٌ تكمّم فمي واليد الأخرى تشهر سكينًا حادًا، رفستُ بقدميّ وصرختُ، فدفنتْ الصرخة في حلقي، ومثل سمكة جرّدها الشصّ من ماء النهر رحتُ أميل برأسي إلى جهة تمنحني فرصة الخلاص من ضغط يدها، وتسرّب إلى جسدي إحساس بثقل وزنها وقد زاد ضغطه، اللحم الحيّ الساخن ينطفئ فجأة ليصير أطنانًا من القوة، عيني على نصل السكّين المتوهّج وهو يتحرّك في الهواء، خمّنتُ أنّ تسديد الضربة يكون إلى القلب مباشرة، إنه الموت النظيف، الموت الذي يليق بجثّة زوج، لقد كانت رقبتي متاحة، لم يكن يسدّ الطريق نحوها غير إيمانها بقتل نبيل تمنح فيه لها وللجثّة شرف النهاية.

هكذا فهمتُ، من الفرص المواتية المستمرة التي أتيحتْ لها لنحر رقبتي وأنا أتلفّتُ في تخبّطي، كان بإمكانها أن تفعل وبسرعة برق، تمدّ رأس النّصل جهة الأذن، ثم تسحب بضغط يفجّر الشّريان إلى أن تبلغ الأذن الأخرى، سمعتُ مثل هذه الجملة آلاف المرّات.. الذّبح من الوريد إلى الوريد.

لكن، كيف صار الأمر إلى ما هو عليه؟ بدأنا كما كنّا نبدأ في كل مرة، لا شيء ينغّص الصفو، الضّحكات، الملاطفات البريئة،

جسدي يدفع جسدها، بدلال تسقط مثل صفصافة يوقعها العصف، تسحبُ ساقًا وتمدّ الأخرى، تغرسُ أصابعها في خصلات شعرها وتسحب كأنها تصفّفه، تهزّ رأسها وتضحك، عضّة حانية على الشفة السفلى، غمزة العين اللوزية التي يفجّرها سحر الريميل، إيماءة الكتف التي تدعو وتصدّ في عين اللحظة، الأمر بدأ هكذا، والموقف الذي سبق ما نحن فيه لم يكن لينذر بخطر محدق، ووجهها المكلّل بالحبّ والرّغبة ما كنتُ لأتوقّع له هذا التحوّل الفاجع، زوج وزوجة يفترشان الليل ويلتحفان بحاجتهما، ثم فجأة ينقلبُ كل شيء..

من أوحى لي بفكرة كون العلاقة زوجية؟ أنا للحقيقة أغرق في حياة العزوبة حتى تلافيف رأسي، ووالدتي لا تتوقّف عن التذمّر من هذه الحقيقة، تقتنص أوقات سكينتي وما أقلّها، ثم تواجهني باستحالة استمرار الوضع هكذا..

- لكنني بخير..
- يا وليدي غدوة تتخبّى عيني.
- الله يطوّل في عمرك ويعطيك الصحة.

الأمر ليس مثلما أراه، هذه المرأة لا أعرفها ولم يسبق لي أن رأيتُ وجهها قبل اليوم، أكّدتُ ذلك لنفسي بجهل اسمها، لذلك فقد عدتُ إلى الرّفس بقائمتيّ كحيوان وقع في شَرَكٍ، كيف لم أنتبه لنفسي وأنا أنحدر في زقاق المبغى، أحمل رغبتي في نفسي وثمنها في جيبي..

وحين ملتُ انسحبتْ أصابعها عن فمي، تنفّستُ بعمق من يواجه الهواء بعد طول غرق، وقلتُ بصوت يائس:

- سأدفع.. سأدفع..

لم تنبس بكلمة واحدة، باتت تضغط بكل ثقلها، وعادت فأحكمتْ إغلاق فمي من جديد، فهمستُ لنفسي.. إنّ مثل هذه الأوكار تتمتّع بالحماية اللازمة لهؤلاء النسوة، وفي الحال رأيتُ قوّادًا يملأ باب الغرفة، فصرختُ:

- امسك يدها.

لم يحرّك ساكنًا، رمقني بنظرة ساخرة، ثم انسحب مخلّفًا وراءه ما يشبه سحابة صغيرة راحتْ تتكاثف وتتجمّع عند السقف، جعلتُ أنقل بصري بينها وبين السكّين المشهور في يد المرأة وقد وقعا في نفس خط رؤيتي، وتساءلتُ بنفاد صبر: متى ينتهي النّصل إلى قلبي فهو كل مرادها؟ وسمعتها تجيبني لأول مرة:

- إلى أنْ ألدكَ.

الحلم 22

رأيت فيما يرى النائم...

هديـر جمـوع متدفّقـة، صيحاتهـم تمـلأ الفضـاء وأيديهـم ملوّحـة متوعّـدة، وأعناقهـم مشرئبّـة، ووجدتنـي انـدسّ بينهـم حتـى لا تثبـت تهمـة خيانتـي في خروجـي عنهـم..

هل كانت ثورة؟..

لا أعـرفُ عـلى وجـه الدّقـة مـا الـذي يحـدثُ، لم يتنبّـه أحـد إلى تسـلّلي، أمـا مـا هـدّأ مـن روعـي فهـو أنّ هـذه الجمـوع تشـبه كـرة الثلـج المنحـدرة مـن رأس جبـل، إنهـا تبـدأ صغـيرة ثـم تكـبر في طريقهـا نحـو سـفحه، لقـد كنـتُ نُدفـة الثلـج التـي شـكّلتْ مـع آلافٍ مـن أخواتهـا هـذه الكـرة المندفعـة، وكـي تكتمـل طمأنينتـي أكثـر رحـتُ أقلّـدُ هـذه المجاميـع في التلويـح بيـدي وترديـد كلماتهـم:

- يسقط... يسقط..

أحدهـم يعتمـرُ قبّعـة ويطلـق مـن فتحـة مؤخرتهـا خصلـة مـن شـعره، أشـار لنـا بيـده أن نتوقّـف، ثـم راح يعـدّ:

- ثلاثة... اثنان... واحد.. اكشن..

عـاد التدافـع مـن جديـد، تعثّـر بعضنـا ببعـض وأعيننـا عالقـة بالرّجـل تنتظـر إشـاراته التـي نسـير عـلى هديهـا، رأينـاه يشـيرُ لنـا بـأن نرفـع حـدّة أصواتنـا أكثـر.. يسـقط... يسـقط.. لا أعـرفُ لمـن نطلـب السّـقوط، ولكننـي خشـيتُ عـلى نفـسي مـن السـؤال:

- كيف تطلب سقوط رجل لا تعرفه؟!
- هذا عميل..
- لا حياة للخونة بيننا.

ثم قال آخر من وسط الجموع:

- سوف يكون هذا الكادر من أروع المشاهد التي صوّرت في الفيلم.
- عن أيّ شخصية تدور أحداثه؟

لطمني السؤال في صمت، بلعتُ ريق الهزيمة، مرة أخرى تردّد الصوت بثقل الرّصاص.. يسقط... يسقط... رحتُ أستعرض العشرات من وجوه القادة والزعماء والديكتاتوريين الذين ماتوا تحت هدير الجماهير، أيكون أحد هؤلاء الوجوه هو بطل هذا الفيلم؟ وزمجر صوت على مقربة منّي:

- الموت للخونة..

تحسّستُ رقبتي، متى تثبتُ خيانتي بهذا الجهل الصرف فأنال العقاب الذي أستحقّه؟.. لا أحد يهتم لأمرك، أنت أحاد النّاس لا تسمن ولا تغني من جوع، وما دام هو رأس المشكلة فلا خوف..

التفتُّ أبحثُ عن الكاميرات وفوانيس الأضواء العملاقة كعادة عمل أهل السينما، كنتُ أريد أن أقنع نفسي بأنّ الأمر لا يعدو كونه حاجة تصوير لمجاميع جاءوا بدافع الفضول، المصيبة أنّ لا شيء يوحي بذلك، حتى من تخيّلته مخرج الفيلم، سرعان ما ألقى مكبّر الصوت على الأرض لرفس الأقدام وتسلّق كقرد على أكتاف المتظاهرين..

سوف تفتح قوات الشرطة النّار علينا، فهذا هو العُرف الساري في مثل هذه الأحداث، نتساقط كالذباب، يتدافع النّاس بهرج ومرج، تعلو الصرخات، يعوي الرّصاص، تنزّ الدماء، يتفرّق شملنا كقطيع داهمه الخطر.. تسلّل إليّ صوت باكٍ.. (الرّوح عزيزة) انكمشتُ داخل خوفي متضرّعًا إلى الله أن تخطئني رصاصاتهم، طفقتُ أزحف بما بقي فيّ من جهد نحو جدار صغير، يستحيل عبوره، إنّ محاولة تسوّره تعرّض ظهري لوابل رصاصهم، لا بأس من أقدام تدوسني، لا بأس أيضا من منظر عينين تحملقان في وجهي بكل وجع الأرض..

- يسقط... يسقط...

الصدّى كالصوت، ينتشر كالطحالب المسمومة، ثم يستحيل إلى طنين عاصف، يتناسل، جراء كلبة شاردة، رائحة دخّان تهبط فوق عواء غريب، كنتُ منكمشًا في الجدار، أعضّ بالنواجذ على أمل واهٍ، الرّصاص لا طريق له إلاّ التيه، رصاصة طائشة وينتهي كل شيء، واخترقتْ صدري طلقة صوت:

- يسقط الخوف..

فنهضتُ من نومي...

الحلم 23

رأيت فيما يرى النائم...

أنني أجلس في مقهى تعوّدتُ الجلوس عليه منذ أمد بعيد، لم يتغيّر حاله كثيرًا وإنْ اختلف رواده، طاولاته وكراسيه بنفس الوضعيات، النّادل الذي رأيته في صغري وهو في عمر الشباب بقي على حاله، يجيء مثلما كان يجيئني منذ عشرين عاما، ويسألني السؤال الذي لم يتغيّر:

- عمّو.. قهوة؟

في أول الأمر كنتُ أحتار لسؤاله، كيف لشاب أن يدعو من يصغره سنًا بعمّو، ثم مع الوقت رددتُ حيرتي إلى كونه يتمتّع بروح مفطورة على الظُّرف والتفكّه لا أكثر، لكنني عميقًا في نفسي.. أمهلتُ الفكرة للوقت، سنصير يومًا إلى عمر ما، بيننا فارق سنوات، لتكن عشرة أعوام، حينها سوف يتغيّر الموقف برمّته.. قلتُ.

المشكلة أنّ الشاب لم يكبر، رأيتني وأنا في عمره، ثم تجاوزته بأعوام قليلة، وعشتُ إلى أن لمحتُ جلاء الفرق بيننا في الهيئة والهندام والوجه والشعر، ثمّة مكرٌ خفيّ والأمر يبدو كالسحر. صاحب المقهى توفّي منذ أعوام خلت، ومن لهم معرفة عميقة ودراية راسخة بكل ما يخصّ المقهى يجزمون بأنّ النّادل كان

يكبر المالك بعشرات السنوات:

- عشر سنوات مثلا؟

يقول العارف:

- لا..لا.. حين كان النّادل في عمر شبابه لم يكن صاحب المقهى قد ولد بعد.
- ثم؟
- ثم ولد المالك وكبر وورث المقهى، ورأى أن يُبْقِي على النّادل الذي كان يعمل مع والده.
- أمر غريب.
- انتظر لتسمع الأغرب.

لجمتني الدهشة حتى قبل أن أسمع، سوف ينجلي السرّ وتنكشف الحقيقة كاملة، وفي سكرة الفضول قطع سؤاله انسجامي:

- عمّو.. قهوة؟

تفرّستُ في وجهه بضيق، كنتُ على شفا المعرفة، لم يبق بيني وبين سرّه غير كلمة واحدة، والتفتُّ أبحثُ عن محدّثي فطالعني الكرسيّ بفراغه:

- أين ذهب الرّجل؟

لم يهتم لسؤالي، استدار ومضى إلى الكونتوار، وعدتُ إلى نفسي أفتّش بيأس عن وجه الغرابة فيه، ولكنني أيقنتُ بما لا يدعو للشكّ أنّ النّادل يملك من القوى الخارقة ما يجعله يطلّع على كل صغيرة وكبيرة، وأنّ سؤاله لي عن شرب قهوة لا يعدو أن يكون حرصه الدائم على تفويت فرص الجواب أمام

أيّ تساؤل يخصّه، ولربّما كان في الأمر تعويذة سحرية تبقيه كما هو بلا مسّ من الزمن وتزيده فوق ذلك قوة علم بما يدور حوله من أقاويل وما يجري من أحداث، وتملّكتني ريبة من أنّ ما يصطخبُ في نفسي من تساؤلات ربّما واقعٌ الآن تحت بصره، فقوة البقاء على شباب دائم تستدعي قوى أخرى خفيّة مجهولة تتجاوز فكرة العمر إلى ما دونها من بركات العلم وإشفاء المرضى والتنبؤ بالمستقبل، كل هذا ممكن الحدوث مع مثل هذا الرّجل، فهو دائم القراءة لما يدور في رؤوس زبائنه، متفهّمٌ لحاجاتهم وأذواقهم، وأما سؤاله المتكرّر الذي حفظناه عن ظهر قلب، والذي لا يحيد عنه أبدًا، فليس سوى طعمه الذي يستعمله ليوهمني ويوهم غيري بأنه يجهل طلباتنا، ومن ثمّ يجهل كل شيء عنّا..

هذه حقيقة وجب أن أتنبّه إليها منذ أمد طويل، منذ أن تعوّدتُ الجلوس على هذا المقهى دون غيره من المقاهي رغم توفّرها على خدمات تتجاوز خدمات هذا الرّجل بأضعاف، وتقع في أحسن المواقع التي تطلّ على الخضرة والهدوء والعمران البعيد، ما الذي كان يسوقني إلى هذا المكان غير سحر صاحبه، وكيف انصعتُ لقتل كل تلك السنوات هنا بين يديه غير قوته الغيبية التي تتحدّى حاجة العقول وسعي الأقدام ورغبة النفوس، وما الحيلة الآن للخلاص من رجل لا يبرح رأسي، مطّلعًا على كل شاردة وواردة في تفكيري، منصتًا إلى كل نأمة في روحي، كاشفًا عن كل خلجة من خلجات نفسي؟ ووجدتُ نفسي أخوف من أن تتفوّه لنفسي:

- مثل هذا الرّجل جزاؤه القتل
- القتل؟!
- نعم القتل ولا شيء غيره.

وقهقه محدّثي إلى جواري، بعد أن عاد بطريقة لم أفهمها، وهمس:

- لكنه صاحب شباب دائم، ومثله لا يموت بالسهولة التي تتخيّلها.
- كيف سمعتني؟
- لستُ الوحيد الذي سمع حديث نفسك.

وأومأتُ برأسي أستفسر، فأكّد صحّة تخميني قائلا:

- نعم هو أيضا عرف ما سوف تقدم على فعله.
- هي نيّة لا أكثر.
- هو يعرف أنها نيّة لا أكثر، ولن تلقى منه ما يسوؤك..

وسألتُ بشيء من الخوف:

- ألا يتربّص لي؟
- إنْ تربّصتَ له.

بقي على شباب دائم، يسأل نفس السؤال الذي ينتهي إلى ذات الطلب، وكنتُ أمنّي النفس بقتله، مجرّد أمنية تجري إلى الخاطر كلّما لاح لي إحساسٌ بانهماكه في تلبية طلبات الزبائن، ومع الوقت خلصتُ إلى تجسيد روح النيّة بتنفيذ فعل القتل حتى لو سبق هو إلى قتلي، من المعقول أن يموت أحدنا ليخلّص الآخر، ووجدتُ نفسي من جديد في المقهى، أخفي السكّين في جيبي وهو يقتربُ منّي على مهل...

الحلم 24

رأيت فيما يرى النائم...

أنني جالس في حجرة معتمة، ينوء جوّها برطوبة صيف ثقيل، ويدفع صمتها المترامي الملل إلى النفس، فكّرتُ في فتح النوافذ لأنعم ببعض الضوء، ثم ولسبب مجهول أجلّتُ قراري إلى وقت لاحق، فقد كانت الأوراق التي بين يديّ هي كل ما يسيّطر على تفكيري في تلك اللحظة.

الأمر الغريب أنني لا أعرف أهميتها بالضبط، لكن بدا من أشكالها وخواتيمها وتواقيعها أنها أوراق يتوقّف عليها المصير والحياة، هناك أمر آخر لا يعرفه غيري، مشكلة احتفظتُ بها لنفسي وتعايشتُ معها بما ملكتُ من عناد في طينة طبعي، وهو أنّ بصري ضَعُفَ خلال سنواتي الأخيرة، وربما كان هذا أحد أهم الأسباب التي صرفتني عن القراءة، وهو الأمر الذي عُرِفْتُ به بين أهلي وزملاء العمل، ولأكون صريحًا مع نفسي أكثر، فمدخولي المالي لا يقف حائلا أمام زيارة طبيب عيون ينتهي فحصه غالبًا بنظّارة طبيّة، مع الوقت عزوتُ ذلك الرّفض إلى كفرٍ داخلي بمسألة العمر والكبر وارتباطهما الوثيق بضعف البصر.. نعم... هذا هو.. كنتُ أرى في النظّارة الطبيّة صفعة مدوّية تحرّك كل عصب في وعيي:

- لقد كبرتَ..

أجاهد بما ملكتُ من حيلة وقوة بالضغط على عضلات العينين، أبعد الأوراق وأقرّبها على خط مسافة عليّ أتعثّر في نقطة ما منه على جلاء رؤية، استنجد بالضوء الباهر الطبيعي بدل أضواء اللمبات الواقعة في المكاتب والغرف المغلقة التي لا تفي بالحاجة..

هذا كله لغو في مواجهة العتمة داخل حجرة رطبة خالية من الأثاث والنوافذ، والباب الوحيد يؤدي إلى دهليز لا أعرف إلى أين ينتهي، والأوراق مهمّة وفائقة الخطورة، وجهة رسمية لا أتبيّن من تكون على وجه التحديد هي التي ألحّتْ في طلب هذه الورقة:

- الملف ناقص بحكم عدم توفّر هذه الشهادة.
- فتّشتُ كثيرًا.

وقالت موظفة حسناء من وراء مكتبها:

- هذا إهمال.

أحسستُ كأنّ أحدهم يلقي بي في جبّ بلا قرار.

- هذه كل أوراقي الثبوتية وشهاداتي منذ ولدتُ.

وعاد الرجل يقول وهو منهمك في فرز الأوراق:

- ضيّعتها.. يا أخي ضيّعتَ أهم شيء...

وامتد صوت الموظفة من جديد كطوق نجاة:

- فتّشْ أكثر.. ربما وضعتها في درج ما ونسيتَ..

يا لآفة النسيان وهي تمتزج بالعتمة وضعف البصر، وأيّ الأدراج أفتّشُ وخزائن الذاكرة منهوبة الأقفال؟.. هذه هي

الأوراق الثبوتيـة، عقـد إيجـار البيـت، وصـولات الكهربـاء والمـاء والهاتـف، شـهادات العمـل والعطـل المرضيـة، العطـل السـنوية، رزمـة أوراق كبـيرة سـوف تحـار النّـار في أكلهـا، لكنهـم يقولـون:

- هذه الشهادة بالذات تتوقّف عليها حياتك...
- ألا يمكن أن يكتمل الملف دونها؟
- يستحيل.

ثـم أومـأ لي أن أنتظـر دوري في الطابـور الطويـل، سـمعته يقـول أيضـا:

- حـين تظهـر أعـراض المـرض والشـيخوخة يسـهل الحصـول عـلى هـذه الشـهادة..

في الحجـرة المعتمـة، ينـوء الجـو برطوبـة صيـف ثقيـل، ويدفـع الصمـت المترامـي السـكينة إلى النفـس، فكّـرتُ في غلـق كل المنافـذ التـي يمكـن للضـوء أن يتسـلّل منهـا، وشـيئا فشـيئا رحـتُ أغـرق في ظلمـة تشـبه اليقـين..

الحلم 25

رأيت فيما يرى النّائم...

نقطة ظلّ على الأرض، بدت أول الأمر على هيئة نملة ضاعت عن سربها، هزّني صوته من سهوي:

- سوف تسحقها قدم عابر..

الأمر المحيّر أنّ النّقطة اتسعتْ، تمدّدتْ حوافّها، ففاضتْ عن حدود احتمالنا الأول. لا علاقة للنقطة بالنمل، وأكّد على ما في رأسي بقوله:

- صارت بحجم بقعة.

البقعة كبرت، أكلت ضوء الأرض، ابتلعت التراب الذي نقف عليه، غطّتنا، البقعة مظلّة غطّت عين الشمس، رفعنا البصر حيث أصل الظّل، فتراءى الجناح الكبير، أكبر ممّا قدّر لنا أن نرى قبل اليوم، ألوانه الزّاهية بديعة الترتيب، دفيفه يسقط في أذني بارتطام هائل يرتجّ له الجبل، ضرباته سلسة في حركتها وهي ترفع الجسم المخروطي إلى أعلى، ظلّل عينيه براحة يده، وهمس:

- فراشة.. كل هذه فراشة!

ثمل الفضاء بلونها القزحي، أسرتنا بطيرانها المترنّح، وكلّما

ابتعـدتْ انكشـف الأفـق وترامـت الأرض أمـام أعيننـا، وبلسـان ألجمـه الخـوف قـال:

- لا شجر، لا حجر، ولا بشر..
- الفراشة لا تخيف إلى هذا الحدّ.

قلـتُ ذلـك لأهـوّن الأمـر في عينيـه، رغـم دبيـب الخـوف الـذي تفشّـى في روحـي وأنـا أرى أثـر الرّمـاد الـذي خلّفتـه، في خطـوط طيرانهـا النّـار التـي سرعـان مـا تنكفـئ عـلى سـواد فاحـم، لم أصارحـه بـما يمـور في قلبـي، ربّـاه مـن يصـدّق أنّ الوداعـة تنقلـب في طرفـة عـين إلى مثـل هـذه الوحشـية، ثـم خمّنـتُ أنّ كائنًـا يهيـم بالنّـار ويحيـا بحـرق جسـمه حتـى آخـر الرّمـق، لهـو كائـن خطـير:

- الفراشة؟!
- نعم الفراشة..

بـدتْ تتقلّـبُ في طيرانهـا باهتـزازات غريبـة، كأنّ بهـا مـسّ مـن الشـيطان، لا يمكـن فهـم مـا يحصـل:

- الفراشة وديعة وآمنة..

أكثرهـم يـرى أنّهـا لا تظهـر إلاّ في فصـل الرّبيـع، تـدلّ عليـه وتمنحـه مـن ألوانهـا الزّاهيـة البديعـة روح لونـه، ثـم مـا لبـث أن اشـتعل الهديـر مـن جديـد، تكاثـر الدّفيـف، واسـتولت عـلى الفضـاء بأحجامهـا المتفاوتـة وألوانهـا المتباينـة، قـرون استشـعارها كقـرون شـياطين، أفواههـا متّسـعة، أرجلهـا مشـعّرة، عـشرات الآلاف منهـا تلتهـم كل شيء وتحـرق الأخـضر اليابـس..

أمـام نـشرات الأخبـار طمعنـا في الحقيقـة، تتضـارب الأقـوال، قـد

ترجمنا بنارها قبل أن نعرف، لكن إيمان النّاس بها كحقيقة يبلغ حدّ التقديس:

- هذه الفراشات اخترعتها يدٌ بشرية، أحدهم نصب لنا الكمين القاتل..

والتفّ حولي النّاس، في أيديهم الطوب والحجارة والعصي، وفي أعينهم قتلي، وفي لحظة يأس رأيتني نقطة ظلّ على الأرض، نملة تاهت عن سربها، والأقدام، آلاف الأقدام مرفوعة لسحقي..

الحلم 26

رأيتُ فيما يرى النّائم...

أنني أدفع ثقل ألواح إلى أعلى، من شقوقها انهال التراب بصورة ماء. الفكرة موجعة إلى حدّ الخوف إلاّ أنّ الحرّية التي تقع إثر المحاولة تهوّن الأمر، دفعة أخرى تنغرس فيها اليد في قلب التراب، ثم يتكشّف الضوء والهواء، آن أوان الزّحف، كدودة رحتُ أخلّف أثري على الأرض الطريّة.. الحفرة مليئة بالندم، شقّ بقياس شبر تحفّه السكينة وينطوي على أسراره الكاملة..

لستُ أدري إنْ كان الليل قدر مصادفة أو حالة ترتيب تتواءم وضرورة الخروج، الأمر لا يهم بقدر أهمية حدوث معجزة، إذ لم يسبق أن خرج أحدهم من قبره ليحيا حياة أخرى، عليّ أولا أن أتخلّص من هذا الكفن تحت جنح الظلام، إنها الفرصة المقدّرة التي تحجب عن الأعين رؤية هذه الهبة الإلهية وهي تبعث حياة ميّت من جديد، سكرات الفرحة تسبقني إلى السياج الذي يتوكأ على أوتاد خشبية، فرصة أخرى تُطْوَى فيها الذنوب وتُغْسَلُ الشرور والآثام بمياه الخير الطاهرة.

بفرحة طفل تخطيّتُ السياج، وطمعتُ كما تطمع كل نفس صغيرة في رؤية ما تركتْ خلفها:

- هذا أول الخطأ..

تـردّد الصـدى في جنبـات المقـبرة وأنـا أتطلّـع إلى السـكينة بعينـين منتصرتـين، أعـرفُ أنـه الفضـول، حاجـة الطمـع المتأصلـة في كل فـانٍ، تذكّـرتُ المعصيـة الأولى، لا.. لا زجـر عـن الالتفـات، ولكـن الزّهـو الـذي تربّـص بي أفقـدني حـسّ النقـاء، هـا أنـذا أنقلـب إلى شـيطان مـن جديـد حتـى قبـل أن أبـرح فضـاء المقـبرة.. أسـتغفر الله العظيـم مـن كل ذنـب عظيـم وأتـوب إليـه، وتدافعـتْ إلى روحـي أصـوات هـادرة:

- كل ما ينقصك من حسنات بإمكانك أن تحصّله الآن..

في آخـر الطريـق التـي تنتهـي عندهـا المقـبرة ترقـد درّاجـة هوائيـة، كـما ولدتنـي أمـي مشـيتُ، يسـتحيل قيـادة درّاجـة بعريـي هـذا، أوقفتهـا ودفعتهـا متخـيّرًا طريقـي وسـط العتمـة:

- يسوق درّاجة كما ولدته أمه..
- اللعنة عليكم.

بعـض الأتربـة عالقـة بي كبصمـة مـوت، والحيـاة نعمـة في يـد سـخيّة جبّـارة قـادرة، وتسـاءلتُ بخـوف:

- كم من الوقت سوف أبقى؟

أعـرف أننـي أخـسر رهانـات الأجوبـة دائـما، كـما أعـرف طينـة نفـسي الخبيثـة التـي تنجـذب أمـام كل لـذة كانجـذاب الفـراش إلى فتيـل النّـار، تبيـتُ البـارات مشرعـة الأبـواب إلى سـاعة متأخـرة مـن الليـل، تُبْقِـي المـرأة نافـذة حجرتهـا مواربـة في غيـاب زوجهـا، فيلـوح ضـوءٌ سـاهرٌ يرشـد خطـوي إلى اليقظـة.

الحلم 27

رأيت فيما يرى النّائم...

السفّود يقتربُ من عيني، تشدّ عليه أيدٍ غليظة مشعرة، وتلوح من وراء قبضته أعين يتطاير منها الشرر. لا نجاة لي من بين أيديهم، وإنْ حدث الأمر فهو مجرّد خارق من الخوارق التي انقضت من على وجه الأرض.

تزحزحتُ قليلا لأتفادى فقأ عيني، غير أنّ ثقل جسمي بدت خيانته واضحة أمام سرعة حركتهم ودقّة تنظيمهم المحكم، نسيتُ أن أسرّ لنفسي بحقيقتي، فأنا حوتٌ ضخمٌ، وآلاف الأطنان التي تعوّدتْ على حياة الماء يستحيل أن تصمد لحظة واحدة على اليابسة أمام لمعان هذه الحراب، بإمكانهم أن يفعلوا، والآن.. لكن لأسباب مجهولة المعرفة بدا أنهم يؤخرون ساعة موتي ما استطاعوا، كانوا يشهرون أدوات قتلهم ويطلقون حناجرهم بحمم الصراخ، قال أحدهم بنكاية في لحظة نسي فيها نفسه وهو يقف على مقربة من أذني:

- هَرِمَ الحصان.

عليهم قتله ليتخلّص من ألم العجز الذي يعانيه، الصراحة تقتضي أيضا قول كل شيء دفعة واحدة، فالأمراض مجتمعة بدأت تنهش لحمي كقطيع كلاب برّية قبل إحالتي على المعاش

بأشهر، الضغط والسكّري ودوالي الساقين والتهاب المثانة..

لا يهمّ إنْ كنتُ حوتًا أو حصانًا، المهم أن أتخلّص من أيدي الرّجال، النجاة هي كل ما يتوق إليه من يقع في مثل ورطتي حيث يسقط فريسة لثقل وزنه وآلام أمراضه ويأس عجزه، رغم ذلك كنتُ أزحفُ ببطء، أدفع بساقيّ ثقل جذعي إلى الوراء منتظرًا لحظة فرج مجهولة، حالة سحرية تنقلني ممّا أنا فيه إلى وضع جديد، معجزة لا تتكرّر تحملني من جحيم عذابهم إلى جنّة سلامي، مع الوقت تخيّلتُ أنّ الفكرة قد تحدثُ في رنين موبايل مثلا، اتصال ما يغيّر مجرى حياتي، طمعتُ في ذلك وتمنيته وحلمتُ به. الخبر الذي لا يجب تجاهله أيضا، هو أنّ موبايلي قد توقّف عن الرّنين بمجرّد أن غادرتُ مصلحة العمل، حدث الأمر منذ شهور خلتْ، منذ سقوط حاجتهم إليّ، لم أكن أتوقع هذا الصمت المطبق الذي تمنى به نفسي، تُرِكْتُ للفراغ، وحرصتْ زوجتي على وضع مخطّط جديد لحياتنا:

- النوم.. عليك بالنوم..

الحياة بدت بلا جدوى، ومثل زائدة دودية في جسم لا يكدّر عمله غيابها تمثّلتْ لي نفسي، رنين المنبّه الصباحي بلا معنى، تأخّر أو إبكار باص العمل في الحضور ليس مشكلتي، وشيئا فشيئا تراجعتْ سلطة كلمتي، ووجدتُ أصغر الأبناء يمنحني لعبة مسدّس يطلق الماء بدل الرّصاص:

- حتى لا تؤذي نفسك.. قال

لنفسي قلتُ: إنّ الكلمة فقدت سلطتها وسطوتها فعليًا، الكلمة كالرّصاصة تمنح الحياة والموت، الآن هامش ماء، لا شيء غير لعبة

في يـدي، أتأخّـر كثـيرًا في فـراشي رغـم أنّ يـد اليقظـة تمسّـني باكـرًا، أضغـط زر التلفيزيـون، ناشـيونال جيواغـرفي ورأس القطيـع في زمـرة الأسـود يُطْـرَدُ شرّ طـردة، أصـوّب مسـدّسي المائـي نحـو الشاشـة، أهـدّد بإطـلاق النّـار عليـه في حـال عـدم عودتـه إلى قطيعـه:

- لا تستسلم..

عـلى السـافانا يمـشي، أشـدّه بسلسـلة ذهبيـة ثقيلـة مـن عنقـه، كأنّنـا نبحـثُ عـن مـاء، الينابيـع جافّـة، والعطـش يشـتعل، فكّـرتُ في مـاء مسـدّسي لعلّـه يحـلّ المشـكلة، كل شيء يمـوت بفعـل الرّمضـاء إلّا هـؤلاء الرّجـال الذيـن يتدافعـون كالشـياطين، يشـهرون حرابهـم، السـفّود يقـتربُ مـن عينـي، تشـدّ عليـه أيـدٍ غليظـة مشـعرة، وتلـوح مـن وراء قبضتـه أعـين يتطايـر منهـا الـشرر، وعينـي تستسـلم ليقظـة شـعاع شـمس تمّـوز الـذي اخـترق النافـذة.

الحلم 28

رأيتُ فيما يرى النّائم...

الظّـل يُسْـفَحُ عـلى أرض الغرفـة، تشـكّل أول الأمـر بهيئـة فزّاعـة، التقطـتُ خـوفي لأدرأ بـه الخطـر عـن نفـسي، يجـب أن أبتعـد مـا أمكـن لجناحـيّ أن تخفقـا، تقلّبـتُ في الهـواء، ارتفعـتُ حتـى اختلطـتُ بأدخنـة سـحب بيضـاء، تـراءت حجـرتي مـن هـذا العلـو الشـاهق دون سـقف كـما رأيتنـي عـلى سريـري أغـطّ في نـوم عميـق والظّـل ينـام إلى جـواري فـوق بـلاط الغرفـة.

- استيقظْ.. يجب أن تستيقظ...

تململ الظّـل، فخسر شـكل الصليـب الـذي ارتبـط طويـلا بهيئـة الفزّاعـات، بـدا شـكل امـرأة، وشـى ضـوء الخـارج بشـعرها الطويـل وجسـدها المثـير، لكننـي مسـتغرقٌ في نومـي، متّصـلٌ بحالـة مـن الغيـاب اللذيـذ الـذي ينفـي مـا عـداه، لا أرى أكثـر مـن الـلاشيء، الفـراغ المجـرّد العـاري، رغـم أنّ المـرأة بـدأت تتحـرّك، اهتـزّ شـعرها وتبـدّى منهـا ثـدي وهـي تغـيّر مـن وضعيـة وقفتهـا عـلى البـاب، والبـاب أراه متاخمـا للـرّواق المضـاء بلمبـة صغـيرة واهيـة.

- يجب أن تستيقظ..

هـو لم يـرَ الأشـياء كـما أراهـا، تركتـه كـما هـو وهربـتُ بخـوفي منـذ أن أدركـتُ أنّ الفزّاعـة قـد نُصِبَـتْ في غرفتـي، كيـف لم ينتبـه كـما انتبهـتُ؟ ولِمَ لم يقـدّر الخطـر الـذي قدّرتـه؟ كلانـا يعـرف أنّ الفزّاعـة

تحمل الخوف حتى لو أتقن صاحبها صنعتها وجوّد في بناء هيكلها وشكّلها بصورة امرأة بديعة التكوين.

- زمان كانوا يصنعون الفزّاعات بوسائل بدائية.

قال لي:

- أعرف.

- اليوم تغيّر كل شيء بإمكانهم خداعنا.

ضحك في عزّ نومه ساخرًا:

- أتخاف الظّل؟

الحمد لله... أخيرًا انتبه، هو يدرك ما الذي يدور حوله، يرى الظّل، يعرف معنى الفزّاعة، يفهم كل شي. لكنه يظل يبتسم، في شفتيه تعلق رغبة وفي يديه تتعثّر حاجاته، والظل يتحرّك أكثر من أيّ وقت مضى، سار بتؤدة نحو الجدار، كأنها امرأة عارية، عارية تمامًا، انقسم جسمها بين الحائط والبلاط...

- احذر...

قلتُ بروع ونفاد صبر، فصرخ في وجهي:

- ألا تكفّ؟

- أنا خائف.

- لا داعي لكل هذا القلق.

وأشاح عنّي بوجهه، غرق في حاجاته من جديد، عادت إلى شفتيه رغبته الأولى، وبرح سريره متلمّسًا طريقه على هدي النور الخافت المتسرّب من الصالة، كان الظّل قد عاد إلى هيئة فزّاعة ملتصقًا هذه المرة بالجدار أشدّ الالتصاق، بإمكاني الآن رؤية الجسم وهو يختلط بظلّه، وقبل أن يرتد إليّ الوعي أشار نحوي

قائـلا:

- انظر.. فيم خوفك؟ هو مانيكان لا أكثر..

مانيـكان يمـشي دون قـوة خارجيـة تلهمـه كل هـذه الحركـة، عجبـتُ للفكـرة، فبيتـي ليـس محـلا لبيـع الألبسـة، لم يخطـر ببـالي يومـا أن أقـف مثـل هـذا الموقـف، ثـم..

- ثم إنك تحلم..
- أيّنا يحلم أنا أم أنتَ؟..
- أقربنا إلى الأرض.

لم أكـن قريبـا مـن الأرض إلى حـد يتيـح لي رؤيـة الحقيقـة كاملـة، فزّاعـة أم مانكيـان، في النهايـة رأيـتُ حياتنـا تعلـق عـلى مـا نختلقـه مـن أوهـام وظـلال، المـأكل الـذي نتقاتـل عليـه مـع الطيـور بهـذه الفزّاعـة، الملبـس الـذي نتوهـم بـه الجـمال بتلـك المانيـكان، يـا للخديعـة الكـبرى التـي تنهـض عليهـا حياتنـا، ثـم أحسسـته يتحـرّج مـن رقابتـي وهـو يهـمّ بالظّـل، فأشـحتُ وجهـي عنـه نحـو سرب عصافـير طـار هاربًـا، مخلّفًـا في فوضـاه تلـك قطـع ملابـس أنثويـة راحـت تتسـاقط عـلى الأرض الواحـدة تلـو الأخـرى.

الحلم29

رأيتُ فيما يرى النّائم...

اليد تلوّح من وراء زجاج السيارة، بدت حركتها مختلطة بضوء أبيض يندفع من الخارج، ومن إشارة الرّجل أدركتُ قوله:

- افتح النافذة..

هو لم يقلها وأنا لم أسمعها، كانت إشارته كافية لأستدّل بها على الطلب، غير أن إصابتي في منبت كتفي اليمنى حرمتني الحركة، اختلط دمي بآلامي بنظرتي المشتّتة، ومن قلب الصدمة رأيتُ حركة شفتيه المتّصلة من دون أن أسمع حرفًا واحدًا، المشكلة ليست في عازل الزّجاج الذي يفصل بيننا، فكمية الطلقات المنهمرة كالمطر على كثرتها وسرعتها هي التي خلّفتْ في أذني هذا الصدى المشبع بالطنين كما خلّفتْ في أنفي رائحة احتراق غريب.

رأيته وهو يدور حول السيارة، أحسستُ بالفشل الذي باءت به محاولاته في فتح أبوابها وقد تعطّلت دفعة واحدة، تلك القرقعة الميّتة التي تنشأ عند الضغط على مقابض الأبواب المقفلة، أمّا كيف تسنّى لي سماع القرقعة دون صوته؟.. فلاتصال جسدي بالمعدن. كان الصوت قد تسلّل إلى أذني عبر جسدي

في سرعة وعنف تحريك المقبض وما يرافقهما من غضب وقلق وتوتر يحوّل المحاولة إلى زعزعة يختلط فيها الصوت بالحركة، أحسّ جسدي المشدود إلى الكرسي بهذه الهزهزة التي اخترقت هدوئي، ثم تبعها صوت القرقعة متسلّلا إلى أذني، بإمكاني الآن أن أسمع صوته لولا عازل الزّجاج، بدأ الطنين ينكمش والصدى يتراجع، بدأتُ أستعيد عافية بعض أعضائي على الأقل، فجرّبتُ يدي اليسرى، سحبتها بهدوء يليق بحاجة الجرح إلى أن بلغتْ أصابعي زر الحزام، اتكّأتُ عليه بقوة باردة فلم يستجب.. الزر عالق، كتفي تنزف.. لماذا لم يتناول حجرًا أو قضيبًا أو غصن شجرة ليكسر الزّجاج؟ ففوق الألم حاصرتني رائحة دماء مختلطة باحتراق عاصف، بإمكانك الآن أن تشمّ عفونة الموت في فضاء السيارة المغلق وقد اختلط بهذا السكون الفاتن الذي يشبه سكون المقابر، ولكنه قطع حبل تفكيري بقوله:

- أنت بحاجة إلى الذباب، أقصد إلى طنينه..

لم يمرّ على الحادث غير زمن يسير، والجو ليس حارًا:

- مازال أمامنا متّسع من الوقت حتى نقع في ورطة التعفّن الحقيقية.

أنا النّاجي الوحيد من المذبحة، أصابعه لا تفلح في فكّ هذا الأسر، والألم يتفاقم.. أيمكن لي الآن أن أفهم سرّ ما جرى؟ قاتل الله السرعة، فقد حدث كل شيء في طرفة عين، انهمار الرصاص والدّويّ وتوقف السيارة بحركة جنونية، الأمر ليس حقيقيًا والفكرة تخرج عن حدود العقل والمنطق. لكن الواقعة وقعت،

والرّجال الذين كانوا حولي تحوّلوا فجأة إلى جثث باردة، وأصابعي الواهنة لا تكفّ عن المحاولة مع الزر العالق فيما يقف هو في الخارج بلا حول ولا وقوة، بدا كأنه استسلم لليأس أخيرًا، فترك للحادث قدريته، ليصنع الله ما هو صانعه مادام قد بدأه، ووجدتني أقول رغم يقيني بأنّ صوتي لن يبلغه:

- هل ستترك الله يواصل ما قد بدأه؟
- أتعتقد أنه بإمكاني فعل أيّ شيء..

ها أنذا أسمعه ويسمعني، لم يتجاوز صوتي حدود التخمين، لكن رده كان واضحًا.. كيف بلغني الصوت من وراء عقبة العازل الزجاجي؟ أثمة عازلٌ بيننا؟ من الواجب أن أتأكد مرة أخرى من الأمر ولو بملامسة رأسي، ألقيتُ قفاي على النافذة في اللحظة التي حاذرت فيها أن يكون الفراغ لا الزجاج هو ما يستقبل رأسي، أحسستُ بعقبة تردني إلى الوعي بكل الحقيقة التي أنا فيها، عالق داخل السيارة مع الموتى وكتفي تنزف والرّجل يفشل في فكّ الحصار، فيستسلم لهذا اللغو:

- من هؤلاء؟
- لا أعرفهم.
- من أين جئت وإلى أين تمضي؟
- لا أعرف.
- من أطلق النّار عليكم؟
- لا أعرف.

- لم تكن المقصود من الهجوم.
- إصابتي في الكتف.
- تمويه.. مجرّد تمويه...

بدا أنّ الاتهام سوف يلاحقني، وصمّم في الخارج على أنّ الفاعل طرف مع الضحايا:

- هذه الخدعة لن تنطلي على الشرطة.

سألته بنفاد صبر:

- أيّة خدعة؟
- أنت من قدتهم نحو حتفهم، فالكمين يشبه أساليبك.
- هذا قدر الله، وأنت تشهد..
- لا أشهد على شيء لم أره.
- لكنك تتهمني، ألا ترى أيّ مصيبة تقودني إليها؟
- أنت من فعل بنفسه ما فعل، حاصرتَ نفسك في السيارة، ثم أطلقتَ الرصاص على مرافقيك، وأصبتَ في خلال ذلك كتفك حتى تقنع التحقيق بأنك الضحيّة الوحيدة النّاجية، ثم استدعيتني لإنقاذك والشهادة لصالحك، أيّ جنون هذا؟..
- صدّقني لا أعرف من فعل بنا كل هذا.
- المشكلة ليست في تصديقك أو تكذيبك، الأمر لا يعنيني على أيّ وجه، فأنا واحد من هؤلاء الموتى إلى جوارك،

باستطاعتك قتلي الآن مثلما قتلتهم لو شئتَ أو جعلي أشهد لصالحك في تحقيق الشرطة مع أني مؤمن تمام الإيمان أنّ القضية كلها من تلفيقك.

قلتُ ببكاء حار وأنا أتقلّب بين الألم الذي ينخر كتفي ويأسي من موقفه الغريب:

- ما يحدث يخرج عن يدي.

هزّ كتفيه بسخرية وهو يقول:

- أعرف هذا النوع من السلوك الإجرامي.
- أنا لم أقتل.
- لكنك دبّرت الجريمة.
- الأمر ليس كما تفهمه.
- يمكنك الآن أن تغيّر رأيك في مسألة عدم قدرتي على فتح أبواب سيارتك.
- تقصد.. أن أجعلك تحرّرني؟
- نعم الأمر بغاية البساطة..

الأمور تتعقّد، لا يد لي في ما يحصل، استسلمتُ لأوجاعي بغمضة هروب مباغتة وأنا أهمس:

- بل سأترك الله يواصل ما قد بدأه.

الحلم 30

رأيت فيما يرى النائم...
أنّ أحلامي انقطعت، ولا سبيل إلى وصلها مرة أخرى، عرفتُ ذلك من خلال حوار سمعته من رهطٍ لم أتبيّن ماهيتهم على وجه الدقة، كان الظلام يخفي ملامحهم، فلم أسمع منهم إلاّ أصواتهم.. قال أحدهم:

- لقد حلمتَ بما يكفي..

فرد آخر:

- لكل شيء نهاية.

ثم عرفتُ بعد ذلك وبطريقة تسقط من يد الشرح والتعليل، كيف أنّي مُنِعْتُ من الحلم، المهم أنّ الرّجال قالوا ذلك بصمتهم، كما قالوه من خلال تبجّحهم بتلك الخصلة التي استأثروا بها وحُرِمتها..

الآن... وداعًا للرؤى ولكل لذيذ طمعتُ فيه فخبتُ، ووجدتني أوطّن النفس على صبر هو كل زاد ليلي، ماذا يعني أن تُحْرَمَ الحلم؟ ومن ذا الذي يملك تلك القدرة العجيبة على حرماني؟.. ثم إنّ أحلامي لا تقوّض أنظمة حكم، ولا تعتدي على حقّ أيّ مخلوق، ولا تأخذ مما ليس لي، ولا تمسّ النّاس بالأذى، هي أحلام لا أكثر، وحي يصدق كواقعٍ في منطقة ما

من الحسّ، وفي ساعة ما من الوقت، ثم أصحو فلا أجد له أثـرًا..

وقاطعني أحدهم بقوله:

- المشكلة أنك تدوّن أحلامك..

- وما وجه الخطأ في ذلك؟

وأرعد صوت آخر من عمق الظلمة:

- قصارى جهد النّاس أن تبحث عن تفسير لأحلامها.

تذكّرتُ ابن سيرين، وقادني الخيال إلى معرض الكتاب، وقفتُ على عتبة بابه، لاحت القاعة فسيحة الأرجاء، سرتُ خفيفا كالنسمة على الموكيت الملوكي الأحمر، قابلتُ امرأة لأول مرّة في حياتي، تأبطّتْ ذراعي ورحنا نتجوّل بين أقسام الكتب، سمعتُ طنين الذباب يتعالى حولنا.. فهمستْ:

- لا تقلق هؤلاء قدموا مثلنا لزيارة المعرض..

تهافتوا كالذباب الجائع على كتاب واحد دون غيره تفسير الأحلام، وسألتني إنْ كنتُ أود طلب كتاب، فهي فرصة مواتية لانتقاء ما أريد، فقلتُ:

- لستُ بحاجة إلى الكتب، ما أكثر ما كتب الفلاسفة والحكماء والشعراء والأدباء، حتى الله كتب إلينا عن طريق رسله، لكن.. لا شيء تغيّر..

زادت وحشية الذباب، واستفحل شرّ تهافته، وعلا طنينه، وحين اقترحتُ عليها العودة إلى شقّتها لم تمانع، لكن صوت أحدهم قطع الطريق علينا بقوله:

- لا فحش..

سألتُ بنبرة الخائفُ:

- حتى في الحلم؟

فقال:

- لم يعد لك الحقّ في الحلم، فما بالك بالزنا.. لا علاقة تربطك بالمرأة..
- لعلّه الحبّ.

قال الصوت وهو يمضي في غيهب الليل:

الحبّ هو الحلم الأكبر الذي تتفرّع عنه كل الأحلام..

الفهرس

الإهــداء.....05
المقدمــة.....07
الحلم 01.....09
الحلم02.....11
الحلم03.....13
الحلم04.....14
الحلم05.....16
الحلم06.....19
الحلم07.....21
الحلم08.....23
الحلم09.....24
الحلم10.....28
الحلم11.....31
الحلم12.....33
الحلم13.....37
الحلــم14.....40
الحلم15.....43
الحلم16.....45
الحلم17.....49

الحلم 18 51
الحلم 19 53
الحلم 20 56
الحلم 21 59
الحلم 22 62
الحلم 23 65
الحلم 24 69
الحلم 25 72
الحلم 26 75
الحلم 27 77
الحلم 28 81
الحلم 29 84
الحلم 30 89